الجنرال ساراي:
استدعته باريس بسبب بكركي

لا يمكننا أن نقرأ في سيرة بول موريس عمانوئيل ساراي، من دون أن نقرأ في سيرة سالفيه: غورو وويغان، إنه «فصل» من فصول كثيرة. فصل من حكاية مسلسلة، بدأت يوم تجمع أولئك العسكريون، بكل نجومهم وأحلامهم، وبكل ما خلفهم في أوروبة من أمجاد عسكرية وسياسية في منطقة واحدة من العالم: الشرق!

يومها، كان الغرب لا يزال يخوض معاركه بنفسه على أرض الشرق. وكما تداخلت فصول جنرالات فرنسة أيضاً بعضها ببعض. ومن ثم فإن الجنرال ساراي، لم يكن خلفاً لغورو وويغان فحسب، بل كان نقيضاً لهما أيضاً. إنه الجنرال الذي أخل «بالعلاقة الخاصة» بين فرنسة والموارنة منذ العام 1840 بل منذ «القرن العاشر» كما قال له البطريرك يوسف الحويك في معرض التأنيب! إنه أيضاً الجنرال الذي سعى إلى إرضاء المسلمين في سورية ولبنان، وتعديل تلك الصورة الفرنسية التي رسمها ويغان، لكن ساراي الحريص على مشاعر المسلمين لن يلبث أن يرى زيارة اللورد بلفور إلى دمشق «وسط مشاهد الحزن والإضرابات العامة». وساراي أيضاً هو الذي سيحاول عبثاً قهر جبل الدروز.

وصل بول ساراي إلى ميناء بيروت في كانون الثاني/يناير 1925، وكان بطل معركة «المارن» قد أعيد إلى الخدمة العسكرية، في جلسة خاصة في الجمعية الوطنية، قبل أشهر قليلة. وقبل أن يستقل الباخرة من مرسيلية، وهي الطريق الرئيسة في تلك الأيام، استدعاه رئيس الوزراء المسيو هريو وقال له، كما روي فيما بعد، إن «سلفيكم غورو وويغان أعارا اهتماماً قليلاً جداً لأي كان، سوى الأقلية المسيحية اللاتينية. وقد حان الوقت ـ إذا كان للجمهورية أن تتجنب مفاجآت غير سارة ـ أن نعير بعض الاهتمام للأكثرية المسلمة الضخمة».

لقد أمضى ساراي فترة قلقة في المنطقة، فهو لم يكن يأمن جانب باريس التي بعثت به من جهة، ومن جهة أخرى نحج في الفوز بعداء الجميع في سورية ولبنان، وكانت الحملات ضده في فرنسة تشن بلا هوادة، بحيث إنه أصبح يمضي بقية العمر في الدفاع عن نفسه.

والحقيقة أن ساراي هو نتاج عهد يساري، جاء إلى منطقة غارقة يومها في اليمين. فالمسلمون كانوا في ذروة التدين المربوط أيضاً بالشعور القومي. والمسيحيون كانوا في ذروة التحفظ وقد لقوا في ساراي الماسوني الراديكالي، انفتاحاً على اليهودية واليسار معاً.

كذلك كان ساراي عدوا للأكليركيين، كما يقول لنا يوسف سالم. ومنذ وصوله بدأ في اتخاذ خطوات مثيرة للفرقاء الآخرين، من أكليروس ومدنيين معاً. وقد ناصب ساراي السياسيين السوريين واللبنانيين العداء بمن فيهم الرئيس إميل إده الذي كانت تربطه بفرنسة صداقات عميقة.

قال هريو لمندوبه السامي الجديد إن فرنسة متكلة عليه في «تطبيق روحية الانتداب» وفي تعديل أخطاء أسلافه. ولأن هريو ينتقد بالطبع أسلافه هو أيضاً، رجال «الكتلة الوطنية» الحاكمة في فرنسة. فالجنرال غورو لم يتحدث، حين وصوله إلى دمشق، إلا عن ذكريات الحملة الصليبية، أما الجنرال ويغان فقد خاطب البطريرك الماروني بقوله:

«لقد بدأت مهمتي في هذه اللحظة، عندما نلت البركة من غبطتك».

لكن ساراي كان أكثر حنقاً على غورو منه على ويغان، الذي اعترف له ببعض الحسنات التنظيمية والعدلية. وفي أي حال ها هو إدوارد هريو يوصيه أيضاً بخفض «الميزانيتين العسكرية والمدنية، لأننا ما لم نفعل ذلك، فإنه سيأتي يوم يرفض فيه اليسار أن يصوت إلى جانب أي اعتمادات على الإطلاق».

والمعروف أن الموازنة العسكرية لسورية ولبنان كانت في العام 1920 نحو 500 مليون فرنك، والمدنية 180 مليوناً، وفي العام 1922 أصبحتا 320و180 مليوناً، وفي العام 1925 خفضت إلى 170 مليوناً وسبعة ملايين!

وفي وداع ساراي، في محطة القطار الباريسية، يقول ابنه عمانوئيل لصديقه الكاتب بول غوبلنتز: «هل سيكتبون في باريس أشياء سيئة عن والدي أثناء غيابه»؟ ثم يعطينا غوبلنتز صورة أخرى عن الصراع السياسي الفرنسي آنذاك، إذ يقول: إن رجال التحري حذروا ساراي في محطة القطار من أن «ثمة شخصا خطيرا يلاحقك». وكان هذا يعني أنه تحت مراقبة الأمن العام.

قبل أن يصل ساراي إلى بيروت «قبل أن تطأ قدمه الأرض، كانت الحرب المقدسة التي شنها اليسوعيون ضده قد بدأت». يقول لنا غوبلنتز في مطالعة مطولة للدفاع عن صديقه. أما ساراي فيقول: «هم الذين بدؤوا. لقد أعلن الحداد دقيقة واحدة في جميع المدارس الكاثوليكية في لبنان، في اللحظة التي أعلن فيها نبأ تعييني. لقد هزني هذا الإطراء فعلاً. إذ قبل الآن لم يشبهني أحد بالجندي المجهول! ولقد لقيت اهتماماً جديا آخر من سلفي، إذ عندما فتحت أدراج مكتبي وجدتها فارغة إلا من نسخة من الإنجيل، تركت هناك قصداً لتثقيفي».

هذا الصراع نابع في الأساس - وهو أمر لا يشير إليه الجنرال - من كون ساراي عضو في «الماسونية» الدولية.

ذلك النهار، أي يوم وصول ساراي بالذات، يأتي إليه «الأب ريمي» راعي الأبرشية اللاتينية، وهو «أيضاً بقال ومصرفي وطباع ومخرب». وكان الأب ريمي على ما يبدو محظياً لدى غورو (الجنرال الإعلامي) ولدى ويغان. و«كان هذا المخلوق الحبري يعرف جيداً كيف يمزج بين الشؤون الروحية والزمنية»، وقد أعطاه غورو مطبعة ثمنها نحو مليون فرنك، حين لم يعد في إمكان مطبعة المفوضية السامية إصدار جميع المنشورات المطلوبة.

وفيما كان ساراي يبحر في المتوسط على ظهر «اللوتس»، أقدم أعداؤه على تعيين الأب ريمي كاهناً للجيش الفرنسي في بيروت، وها هو في اليوم الأول لوصول الجنرال يدعوه إلى «قداس» يقام على شرفه، وعرف ساراي أن ثمة فخا ينصب له، فقبل الدعوة، لكنه أناب عنه الوزير المفوض «ريفي» لحضور القداس. كان هذا خبيراً

في أصول هذه الأمور. ويعلق ساراي على ذلك في مذكراته: «لو قبلت تلك الدعوة لكان عليّ أن أقبل 22 دعوة من 22 طائفة مختلفة». إلا أنه بالنسبة إلى الأكليروس الماروني، كانت تلك ذريعة لشن حملة واسعة النطاق على المفوض السامي الجديد كما يروي لنا يوسف سالم.

كذلك أصدر الأب ريمي بياناً يقول فيه إن ساراي أهان الكنيسة برفضه حضور القداس. وهكذا اضطر ساراي فيما بعد إلى حضور القداديس الرسمية، أو المعروفة «بالقنصلية» في تلك الأيام.

هكذا بدأت مشاكل ساراي مع الأكليروس منذ اليوم الأول. وسوف يتهم «تلك الأنفس المسيحية الطاهرة نفسها بتسميم العلاقة بينه وبين البطريرك الماروني». لقد أقنعوا الحويك بأن «الجنرال ساراي ينوي شن حملة اضطهاد ضد الكنيسة، فاستثاروه، فطلب رؤية الجنرال الذي طمأنه وانتهت المسألة عكس ما يشتهي الآخرون».

لكن «الآخرين» عادوا فأقنعوا البطريرك الحويك بأن ساراي لم يقدم الاحترام الكافي له، إلا أن الجنرال «بدد من جديد حملة الأكاذيب»، كما أعلن البطريرك نفسه بعدما قام ساراي بزيارة بكركي «التي تطل على بلدة جونيه الصغيرة، التي يغلب عليها لون القرميد الزهري والحجر الأبيض».

غير أن ساراي سوف يكتشف في بكركي أن «هذا الرجل الجليل أقل حرية في بكركي مما كان البابا بيوس السابع في أفينيون». ويضع الجنرال اللوم كله على المطارنة الآخرين، وخصوصاً على المطران عبد الله الخوري، «الذي كانت عينه على الثوب القرمزي»، والذي اتهمه ساراي بأنه كان يشن الحملات عليه في صحيفة «إيكو دو باري».

مشكلة أخرى أثارها مجيء ساراي: فالجنرال غورو كان قد وضع تنظيماً سياسياً يشمل مجلساً تمثيلياً وحاكماً فرنسياً يعينه المفوض السامي، وهو أمر مناف للنصوص الرسمية، وفور وصوله أعلن ساراي في محاولة لإرضاء المواطنين، أن الحاكم الفرنسي سوف يستبدل بحاكم من أهل البلاد، أسوة بالوضع في سورية. أما هدفه الحقيقي

فلم يكن إرضاء المواطنين بل إبعاد الحاكم آنذاك فاندنبرغ. لكن ساراي عين المسيو ليون كايلا حاكماً مؤقتاً على لبنان الكبير، وقامت الاعتراضات عليه في الصحف. وقالت يومها صحيفة «الأرز»:

«لقد نجحت المؤامرة المرسومة ضد البلاد، وتم تعيين حاكم فرنسي جديد، لا هو يعرف البلاد ولا هي تعرفه، وقد أصبحت مقدرات لبنان الكبير الآن بين يديه... إننا نعترض على اللهجة الديكتاتورية الواردة في بيان التعيين».

وقالت صحيفة «المعرض» لسان حال «الشبيبة اللبنانية»: إن ثلاثة من أعضاء المجلس التمثيلي هم أيوب ثابت، وميشال بك التويني، ووديع بك طربية، أبلغوا إميل إده رئيس المجلس التمثيلي والمرشح لمنصب الحاكم أنه ما لم يسحب ترشيحه، وفي حال فوزه، فإن ساراي سوف يعمد إلى حل المجلس! أما جبران التويني فكتب في «الأحرار» مقالاً عنيفاً يستنكر فيه تعيين كايلا. وقد اختصرت «لسان الحال» المسألة كلها بقولها: «لقد قسم الجنرال ساراي البلاد إلى قسمين: واحد من الأكليروس، والثاني ضده».

أغلق ساراي صحيفة «الأوريان» بتهمة الإساءة إلى «العلاقات الدولية»، وأغلق كايلا صحيفتين أخريين. لكن ساراي سوف يكتب إلى أصدقائه في باريس مدافعاً عن القرار، ثم عن قراره بإلغاء 500 ألف فرنك، كانت الدولة الفرنسية تصرفها لتأمين فوز مرشحيها: «وقد عاتبني أحد النافذين الظرفاء قائلاً: «الآن لم نعد نعرف لمن يجب أن نصوت. أما مع أسلافك فإن أصدقاء فرنسة الحقيقيين كانوا يصوتون للمرشحين الذين تمولهم الحكومة».

كان ساراي يعتبر أن ما يقوم به خطوات «إصلاحية»، غير أن هذه الإصلاحات لم تلق موافقة المسيو روبير دوكيه مندوب فرنسة لشؤون سورية لدى «عصبة الأمم المتحدة» (كان سابقاً السكرتير العام لدى غورو)، ولا لقيت ترحيب السكرتير العام الجديد المسيو «دوريفي»، الذي «فرضته الكي دورسيه على ساراي». ويتهم ساراي المسيو دوكيه، بأنه نشر ـ بتحريض من الكي دورسيه ـ عدة مقالات انتقادية للمسيو ساراي. أما وجهة نظر «هذا الرجل الذي دمر الانتداب» أي دوكيه، فقد «كانت معروفة جيداً وهي أن سورية بلد متخلف، يجب أن يحكم بشدة ويعامل كمستعمرة».

كان واضحاً أن ساراي ليس على خلاف فقط مع الأكليروس الماروني في لبنان بل أيضاً مع وزارة الخارجية في باريس. وها هي تبلغه برقياً أنه يجب «أن يراعي الأنظمة السابقة بالنسبة إلى انتخابات المجلس التمثيلي»، أما بالنسبة إلى الخطوات المقبلة فسوف يبلغك بها المسيو دو ريفي».

كان ذلك كثيراً على ساراي، ورد ببرقية فورية يطلب من الوزارة الفصل بينه و«بين هذا الزميل». فالمسيو دو ريفي هو على أي حال الرجل الذي قال لويغان وهو يودعه: «لن يكون في وسعي أن أعمل مع مفوض سامٍ من بعدك».

وسوف يكتب ساراي فيما بعد، أن العذاب الذي لقيه من دوكيه ودو ريفي كان يفوق كل العذاب الذي لقيه من «اليسوعيين جميعاً».

على أي حال جرت الانتخابات كما اشتهى «الإصلاحي» ساراي، ولم تكلف الدولة «سوى 15 ألف فرنك دفعت بموافقة الكي دورسيه، لدعم مرشح فقير كان رسولاً حقيقياً للأفكار الفرنسية في المشرق»!

لكن ساراي لن يكشف لنا هوية الرجل. كذلك نقرأ في كتابات ساراي مديحاً لنائبه كايلا، الرجل الذي قال للبنانيين: «الكلاب تنبح والقافلة تسير»! عنه أيضاً يقول ساراي: «ليس في استطاعة المرء أن يتوقع من الآخرين أن يكونوا صادقين مع أنفسهم طوال الوقت. والحقيقة أن الذكرى الوحيدة التي أحترمها في علاقتي مع كايلا، هي صراعنا معا ضد التعصب والظلم في لبنان...؟»

بدلاً من الحديث عن سياسة ساراي خارج لبنان وسورية، أي في فلسطين، نقتطع حرفياً ما يلي، من كتاب «ساراي الصامت»:

«خلال إدارة ساراي سنحت لفرنسة الفرصة أكثر من مرة لأن تعطي برهاناً عملياً للإنكليز على أنها في الشرق، كما في أي مكان آخر في العالم. تنوي أن تبقى أمينة لذكرى الحرب والتحالف.

«وقد قدمنا الدليل للورد بلفور على ذلك، بمناسبة رحلته إلى فلسطين. لقد كان في طريق عودته من مهمة مظفرة إلى القدس، حيث مثل بلاده، «الحامية المجردة للإسرائيليين»، في حفل افتتاح الجامعة العبرية.

«وعلى الرغم من التحذيرات الرسمية التي تلقاها من السلطات الفرنسية، فإن اللورد بلفور كان تواقاً لأن يعود إلى أوروبة بتاريخ سورية، وقد كتب إليَّ (أي إلى غوبلنتز) الجنرال ساراي في هذا الشأن يقول: «لقد قوبلت هذه الرحلة بالاعتراضات من المسلمين الذين انضمت إليهم عناصر مسيحية، عن كونهم يحيون ماضياً مليئاً بالعصبيات والصراعات بشكل لا يلائم مصالحهم، ولا مصالح سورية. وقد وزعت مناشير عشية وصول اللورد بلفور تقول إن «فلسطين للعرب وبلاد العرب للعرب» وهذا يدل على النوايا القائمة خلف الحملة المعادية لليهود في سورية (....)، لقد أطلقت زيارة اللورد بلفور شرارة تظاهرات عدة غير ذات أهمية. الصحف صدرت مؤطرة بالسواد، وثارت اشتباكات بين الطلاب، لكن فقط بعد الزيارة إلى المسجد (الأموي) انتقلت المعارك إلى الشوارع. وعندها اتخذت خطوات فورية لقمع تلك الأعمال من دون صعوبة في ذلك. غير أن هذه الاضطرابات غير المألوفة كانت حسنة أيضاً، إذ أظهرت أن إنكلترة ستكون مخطئة جداً إذا خطر لها أن بإمكانها الحلول محل فرنسة، كما تدّعي بعض الصحف السورية. ولقد أظهرت أيضاً أننا لن نتسامح تجاه أي حملات معادية لليهود. وفوق ذلك فإنه رأى بعينه التفسيرات التي أراد الناس إعطاءها لوجوده في سورية، ولكي لا يعطي ذريعة للاضطرابات، توجه سراً إلى بيروت، حيث أبحر فوراً إلى أوروبة. لقد أيقن أن فرنسة وإنكلترة يمكن أن تربحا فقط بالتفاهم والتعاون في كل مجال».

ويروي السفير عادل إسماعيل في كتابه «السياسة الدولية في الشرق العربي» الجزء الخامس: أن «ساراي» كان ذا نزعة جمهورية متطرفة، فحاول منذ وصوله إلى بيروت في 2 كانون الثاني/يناير 1925 الظهور بمظهر التحرر، فأطلق حرية الصحافة، وأباح تشكيل الأحزاب، وكان علمانياً يكره الأكليريكيين، ولما شاء منعهم من التدخل في شؤون الدولة، تألبوا عليه مع أركان المفوضية العليا من مدنيين وعسكريين، فألزمته حكومة باريس عندئذ على تبديل موقفه منهم، والتقيد بسياسة فرنسة التقليدية في الشرق تجاه رجال الدين. وكتب له «هريو» في 11 أيار/مايو يسأله مُلِحّاً أن «يتنشق بخور القداس القنصلي»

يروي عز الدين الحلبي في مذكراته من العام 1925ـ1927 أن سياسة الانتداب الفرنسي ولدت حقداً تجاه الفرنسيين. فكثر التذمر، خصوصاً في جبل الدروز، من حاكمه الفرنسي المدعو «كاربيه»، وكان ساراي يدعم موقف مندوبه.

وفي 5 نيسان/إبريل 1925 ذهب وفد إلى دمشق لمقابلة المندوب السامي، ومطالبته بوجوب تطبيق بنود اتفاق 4 آذار/مارس 1921 بين زعماء جبل الدروز وسلطات الانتداب.

لم يحسن ساراي «معاملة الوفد، وأعلن عدم التزامه بالاتفاق، وأنذر أعضاء الوفد بالخروج من دمشق خلال ساعتين».

وبالفعل خرج وفد جبل الدروز غاضباً لسوء المعاملة، وألقت السلطات القبض على أحد أعضاء الوفد وهو «عقلة القطامي» أحد زعماء المسيحيين في جبل الدروز، وأرسلته ـ كما يروي لنا «محيي الدين السفر جلاني» في كتابه «تاريخ الثورة السورية» ـ إلى السجن في تدمر.

وبعد مرور شهر على الحدث، سافر «كاربيه» إلى فرنسة لتمضية إجازته، وخلفه الضابط «رينو» بالوكالة. وكانت عين الوكيل على حكم الجبل، فاعتمد سياسة لينة، وشجع سكان الجبل على المطالبة به بدلاً من «كاربيه»، ونجح «رينو» في تأليف وفد من ثلاثين عضواً يمثلون العائلات الدرزية، ذهب إلى دمشق للمطالبة بإبعاد «كاربيه»، وعند وصول الوفد إلى دمشق، حاول لقاء مندوب المفوض السامي، فرفض المندوب استقباله، فما كان منه إلا أن توجه أفراده إلى بيروت لمقابلة «ساراي» شخصياً. ولكن المندوب السامي رفض إعطاءهم موعداً في غياب «كاربيه»، وهددهم بضرورة مغادرة بيروت حالاً وإلا تعرضوا للنفي. ولم تفلح الوساطات لتسهيل اللقاء، فغادر زعماء الدروز إلى حوران معتبرين في الأمر إهانة معنوية.

وتكاتف زعماء المنطقة، وبدؤوا بإرسال العرائض ضد كاربيه، وعقدوا الاجتماعات، ثم انتقلوا إلى التظاهرات في 2 تموز/يوليو 1925 في السويداء. وعزل «رينو»، وعيّن مكانه القومندان «توما مارتان»، فعمل على تهدئة الخواطر، بانتظار تحقيق مكيدة

تقضي بإلقاء القبض على زعماء البلاد. وكان موعد المكيدة عيد فرنسة الوطني في 14 تموز/يوليو. فدعي الزعماء شخصياً للمشاركة فيه. وتريث كبير زعماء الجبل سلطان باشا الأطرش في الذهاب في الموعد المحدد، فأرسل أعوانه لاستطلاع الأمر وصدق، ظنه، إذ عمدت السلطات الفرنسية إلى إلقاء القبض على بعض من حضر إلى الاحتفال في السويداء، كما عملت بالمثل مع بعض من حضر إلى احتفال دمشق.

وبسرعة عمد سلطان باشا الأطرش إلى إعلان الثورة، فسار من قرية «رساس» إلى قرى جنوب جبل الدروز، فانضم إليه عدد من الثوار، ثم مشى إلى «صلخد»، فهاجم سراً الحكومة ومقر البعثة الفرنسية.

ويروي سلامة عبيد في كتابه «الثورة السورية الكبرى 1925ـ1927» على ضوء وثائق لم تنشر، أن الفرنسيين أرسلوا حملة بقيادة القومندان «نورمان» للقضاء على الثورة، فالتقى بقوات سلطان في 21 تموز/يوليو1925 في قرية «الكفر» بين صلخد والسويداء، وباءت الحملة بالفشل، قتل قائدها والعدد الكبير من رجاله.

وأرسل الفرنسيون حملة جديدة بقيادة الجنرال «ميشو» في مطلع شهر آب/أغسطس، فتصدى لها الثوار في قرية «الدرو» و«نبع قراصة»، ولكنهم هزموا، فتراجعت معنويات الثوار، وارتد سلطان الأطرش إلى قرية سليم لوضع خطة جديدة، بينما ارتاح «ميشو إلى النصر السريع، معتبراً أن الأمر قد قضي. وإذ كان جنوده يروون عطشهم في موقع المزرعة الذي تكثر فيه المياه، هاجم الثوار مؤخرة الحملة وطوقوا الجنود أثناء الليل، وجرت معارك بالسلاح الأبيض، وفقد سلاح المدفعية والطيران فاعليته، وانكسر الفرنسيون شر كسرة، وأصيب الجنرال شخصياً.

وقد سطر الثوار ضروباً من البطولة النادرة بهجومهم على المدرعات بأجسادهم، وبعد مضي أسبوع على معركة المزرعة، بدأت مفاوضات بين الجانبين اتفقا فيها على تبادل الأسرى، وبشروط للصلح، وإرجاع الغنائم العسكرية.

ويروي كلٌّ من عبد الرحمن الشهبندر في كتابه عن «الثورة السورية الوطنية»، والسفرجلاني في المرجع المذكور آنفاً: أن الثقة بالفرنسيين كانت مفقودة، وكان

سلطان الأطرش يعلل النفس بتحويل الثورة إلى مظاهرة وطنية، تعم أرجاء سورية، وتتجاوز جبل الدروز، وتشاء الظروف أن يتصل به زعماء حزب الشعب في دمشق، مبدين استعدادهم لمساندة ثورته. فبادر سلطان باشا عندها إلى قطع المفاوضات مع الفرنسيين، ومتابعة الحرب، إلى أن تثور دمشق، وتكون القيادة لجبل حوران ويعملوا معاً على طرد الفرنسيين.

وينقل لنا السفرجلاني نص البلاغ الذي أعلنه سلطان الأطرش إيذاناً بالثورة العامة، وقد جاء في بعض مقتطفاته: «يا أحفاد العرب الأمجاد.. فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا... فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم، ولا يضيع حق وراءه مطالب...

أيها السوريون: لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى، فلنأخذ حقنا بحد السيوف...».

وقد حدد الأطرش مطالبه بالآتي:

1ـ وحدة البلاد السورية دولة عربية مستقلة.

2ـ قيام حكومة شعبية.

3ـ سحب القوى المحتلة.

4 ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والإخاء.

وتجند شباب حوران للسير إلى دمشق في الوقت المحدد، على أمل أن يكون زعماء حزب الشعب قد هيؤوا الأجواء للثورة. ولكن عند وصولهم إلى أبواب المدينة أغار عليهم طيران الفرنسيين، في وقت لم تكن دمشق قد استعدت للثورة، بسبب ضيق الوقت من جهة، وإلقاء الفرنسيين القبض على زعماء حزب الشعب بعد تسرب أخبار اتفاقهم مع سلطان على الثورة من جهة أخرى.

وبدأ الفرنسيون بجمع قواهم في سهل «المسيفرة» للانقضاض على الثوار في شهر أيلول/سبتمبر، ولكن حماسة الثوار جعلتهم يقررون مهاجمة الفرنسيين قبل

اكتمال استعدادهم، فهاجموا السهل من دون أخذ المنطق العسكري بعين الاعتبار. وعلى الرغم من الاستبسال تراجع الثوار مخلفين وراءهم خسارة جسيمة. واستغل الجنرال ساراي نتائج المعركة للمضي في خطته الآيلة إلى إنقاذ الحامية الفرنسية في السويداء واحتلال جبل الدروز. وقد توصلت قوات الفرنسيين إلى رفع الحصار عن قلعة السويداء، وعلى الرغم من مقاومة الثوار. وما أن وصلت قوات الفرنسيين إلى السويداء، حتى اندلعت الثورة في حماة في تشرين الأول/أكتوبر 1925 بقيادة «فوزي القاوقجي» الذي يروي تفاصيل ذلك في مذكراته. وقد استطاع الفرنسيون إجهاض ثورة حماة بقصفهم المدينة بالطائرات، وانتقلت الثورة إلى الغوطة، فدمشق. ومجدداً عاد الفرنسيون لاستعمال الطائرات لإخماد ذلك.. وقد منيت دمشق بخسائر فادحة في تشرين الأول/أكتوبر من جراء قصف الطائرات، وقد جاء ذلك كردة فعل على محاولة الثوار خطف المندوب السامي الفرنسي الجنرال ساراي.

وكان لأوامر الجنرال «بقصف الأحياء المدنية في مدينة دمشق من غير إنذار» أثرها السيء في الجنرال في المحافل الدولية العالمية، لذلك اضطرت الحكومة الفرنسية إلى سحب ساراي لتعين مكانه مفوضاً سامياً مدنياً هو «دو جوفنيل».

وفي مذكراته «50 سنة مع الناس» يروي الوزير يوسف سالم عن الجنرال ساراي الأمور الآتية:

جرت الانتخابات النيابية في فرنسة العام 1924 وفازت كتلة اليسار المؤلفة من الراديكاليين الاشتراكيين ومن الحزب الاشتراكي (ليون بلوم)، فدعى إلى تأليف الوزارة الزعيم الراديكالي «إدوار هريو»، فاستعان بأشخاص معادين للأكليروس. وكان من بينهم الجنرال ساراي، المفوض السامي الجديد الذي جاء خليفة لويغان المتدين. وكان ساراي ذا نزعة يسارية.

فكان أول عمل قام به إثر وصوله إلى بيروت، أن دعا المجلس التمثيلي إلى انتخاب حاكم على لبنان. ولم يكن قصد المفوض السامي الجديد أن يمارس النواب حقهم الطبيعي في انتخاب حاكم للبلاد، بقدر انتقامه من الجنرال فاندنبرغ الذي شهد في الماضي ضده أمام مجلس عسكري.

وعين في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير 1925 موعدٌ لأن ينتخب المجلس التمثيلي حاكم لبنان. وفي الميدان مرشحان: أولهما معرف عن نفسه، هو إميل إده رئيس المجلس يومذاك، والآخر (سري) لم يُذَعْ اسمه ولا ترشيحه، وهو «ليون كايلا»، ويؤيده ويريده الجنرال ساراي. وكان ترشيح إميل إده نفسه ضد رغبة المفوض السامي، أكثر من جرأة، وقبيل افتتاح جلسة الانتخاب، اتفق موظفو الانتداب على تعطيل عملية الانتخاب بالشغب والبلبلة. فأصدر ساراي قراراً تلي في تلك الجلسة، يقضي بتعطيل المجلس، ودعوة اللبنانيين إلى انتخاب مجلس جديد بمهلة ستة أشهر أي في 12 تموز/يوليو 1925. وأصدر قراراً آخر بتعيين ليون كايلا حاكماً على لبنان الكبير.

وكان المفوض السامي يتدخل في شؤون الانتخابات النيابية، فيؤيد لائحة على لائحة، وكان تحديه ضرباً من الجنون، لأنه كان يضغط على الناخبين لاختيار اللائحة المرضى عنها بأكملها. ومن يجاهر بترشيح نفسه ضد اللوائح النيابية التي يوافق عليها المندوب السامي، كان عمله يعتبر تحدياً لإرادة هذا المندوب.

ويتابع سالم كلامه قائلاً:

كان الجنرال ساراي عنيفاً في كلامه، فجّاً في تصرفاته، لا يخفي كراهيته لرجال الدين، فيهاجمهم في كل مناسبة. وانقسمت البلاد إلى علمانيين يشجعهم المفوض السامي، وأكليريكيين يحاربهم. ونشطت المحافل الماسونية، فتعددت اجتماعاتها وتوالى خطباؤها على المنابر. ومن طريف ما حدث في تلك الآونة أن مدارس الرهبان والآباء اليسوعيين، وكل معهد علمي أو تربوي يديره أو يشرف عليه أكليريكيون، كانت تبدأ دروسها في الصباح بدقيقة صمت حداداً على وجود الجنرال ساراي ممثلاً لفرنسة.

وقد يكون أطرف من ذلك كله الحوار العنيف، بل المبارزة الكلامية التي حدثت علناً بين الجنرال ساراي والخوري لويس الخازن.

كتبت جريدة الأرز في العدد 421، الأربعاء في 18 من آذار/مارس 1925 الآتي: قبيل ظهر الثلاثاء في 17 من آذار 1925 استقبل الجنرال ساراي في مكتبه بالسراي الكبيرة رجال الصحافة وقال لهم:

أحببت أن أجتمع بكم مرة في كل شهر، لأرى ما عندكم فتبدونه لي، وما تطلبون إيضاحه مني، فماذا عند كم؟»

وبدأ الصحافيون أسئلتهم، ووصل دور الأب أنطون عقل، صاحب «مجلة السلام» فسأله عن «صحة ما تتحدث به الناس عن عدم رد زيارة غبطة البطريرك الماروني» فقال الجنرال:

ـ أني أقول لك بصراحة أمام الجمهور: إني وعدت غبطته أن أرد له الزيارة، وكنت عجلت في الأمر لو لم تحدث في المجلس النيابي الفرنسي تلك الضوضاء المعروفة التي أثارها ذوو المآرب. وعرفت الآن أن العوائد لا تمسح برد الزيارة في أيام الصيام، فإذا كان غبطته يرغب في أن أرد له الزيارة الآن، ما عندي شرط إلا الانتظار ريثما تنتهي المناقشة في مجلس الشيوخ الفرنسي.

وسأله الأب لويس الخازن (مدير الأرز): هل لك يافخامة الجنرال أن تبين لنا ما هي علاقة رد زيارتك لغبطة البطريرك بالمناقشات التي أشرت إليها، سواء كان في مجلس النواب أم في مجلس الشيوخ؟

الجنرال ساراي: هناك مسائل لا أستطيع التصريح بها لأي كان.

الأب الخازن: ليس هذا مما نبحث عنه، وإنما نكرر الكلام، إننا كنا نود أن نعرف ما هي الرابطة السياسية بين زيارتكم للمقام البطريركي وبين السياسة والمناقشات، لأننا نرى أن الأمر هو مسألة لباقة لا مسألة سياسة.

الجنرال ساراي: إني حتى الآن لم أرد الزيارة لأحد، فلماذا تطلب مني أن أرد الزيارة لغبطة البطريرك الماروني قبل سواه؟ وعلى كلٍ فإني بانتظار نتيجة المناقشة في مجلس الشيوخ.

ويتابع يوسف سالم كلامه بأنه في اليوم الذي تلا هذا المؤتمر الصحفي الصاخب، أصدر المفوض السامي قراراً يخوله حق «تعطيل أي صحيفة أو مجلة تنشر مقالاً أو خبراً من شأنه المس بالسلطات، أو الإخلال بالأمن والنظام»، وكان القرار يشمل لبنان وسورية.

وعلى الرغم من راديكالية حكومتها، فإن فرنسة خشيت أن تفقد صداقة لبنان عندما وقعت على حقيقة ما يجري في بيروت، وعلى أخطار تصرفات المفوض السامي، وانعكاساتها على علاقاتها باللبنانيين، خصوصاً برجال الدين الذين كانت تعتمد عليهم في حكمها ووجودها فيه. لذلك أوعزت فوراً إلى الجنرال بأن يكبح جماح عواطفه، وأن يحضر القداس الاحتفالي كما جرت العادة.

الجنرال ويغان:
يربط الشرق بالبلقان

هناك خط عجيب في مسيرة «جنرالات الشرق».. أكثرهم جاء إلى المنطقة مرتين. أكثرهم خدم في المشرق وفي المغرب العربي أيضاً، أو بالأحرى في «إفريقية الشمالية» كما سماها الفرنسيون والإنكليز مدة طويلة.

وليس من شك في أن الجنرال ويغان كان من أبرز العسكريين الذين عرفتهم المنطقة، إذ قبل الحرب العالمية الثانية كان مفوضاً سامياً لفرنسة في سورية ولبنان.. ومع نشوب الحرب عاد إلى الشرق قائداً أعلى للقوات الفرنسية في الحوض الشرقي للمتوسط ومقره بيروت.

وحين عمل مفوضاً سامياً في لبنان، اشتهر إلى حد بعيد بالاعتدال بالنسبة إلى أسلافه. غير أن الدور الأكثر أهمية هو ذلك الذي لعبه خلال الحرب نفسها.. وهنا نترك الجنرال ويغان نفسه يروي لنا كيف جيء به من التقاعد إلى.. الشرق:

ـ بلغت سن التقاعد يوم 21 ـ كانون الثاني/يناير1935 وتوقفت عن المشاركة في أي اجتماعات عسكرية، على الرغم من أني ضمنت حق الاستمرار في العمل العسكري بصرف النظر عن السن، تقديراً لما حققته في الحرب الكونية الأولى.. غير أنني بسبب طباعي وتكويني، لم أعد أتدخل في شؤون الرجل الذي خلفني، ولم أكلف خلال خمس سنوات في الحياة المدنية بأي مهمة رسمية، باستثناء الوفد الذي مثل فرنسة في حفل زفاف ولي عهد إيران في نيسان/إبريل 1939، وخلال عودتي من هناك توقفت في تركية ورومانية في مهمتين ديبلوماسيتين، وفي آب/أغسطس 1939 كنت مع عائلتي في منزلنا في مقاطعة «بريتاني» نراقب بقلق التطورات في أوروبة، وفي الثاني والعشرين من ذلك الشهر تلقيت رسالة من الجنرال غاملان، يطلب مني أن أوافيه إلى باريس، وفي الساعة الرابعة في اليوم اللاحق، كنت في مكتب غاملان في شارع

الانفاليد في باريس، حيث أبلغني أنه ينوي أن يقترح على رئيس الوزراء، وزير الدفاع إدوار دالادييه، تسميتي «شخصية عسكرية رفيعة»، وإرسالي إلى الشرق الأدنى لكي أتولى تنسيق عمل القوات الفرنسية هناك، إذا دعت الحاجة إلى قيامها بأي تحرك.

وقال لي الجنرال غاملان: «لم أتقدم بهذا الاقتراح بعد، لأني أريد معرفة موقفك منه أولاً».

وافقت من دون تردد.

وقد أتى عرض الجنرال غاملان بعد سنة من الطلب الذي تقدمت به إلى وزير الحربية أيلول/سبتمبر 1938 للسماح بعودتي إلى الخدمة العسكرية إذا ما اندلعت الحرب.. فقد كنت أشعر على الرغم من أني بلغت الحادية والسبعين، أني مازلت أملك شيئاً أقدمه، وأن البقاء من دون عمل أمر لا يمكن لي التسليم به.

ولعل أفضل ما في هذا العرض الذي يقدمه غاملان الآن أنه سوف يضعني في منطقة أعرفها تماماً، ذلك أنني شغلت بين العامين 1923 و1924 منصب المفوض السامي الفرنسي في بيروت.. كذلك فإن التنسيق مع القيادة البريطانية لم يكن أمراً يشغلني، لأني تعودت عليه في الحرب العالمية الأولى، يضاف إلى ذلك أن مهمتي الدبلوماسية في أنقرة وبوخارست كونت لي من المعارف والاتصالات ما يكفي لتسهيل التعاطي مع دول البلقان.

عدت من باريس إلى منزلي في «بريتاني»، لكي أتم الاستعداد للقيام برحلة طويلة الأمد، وصباح يوم الجمعة تلقيت التعليمات لأكون في باريس في اليوم اللاحق، فبلغناها أنا وزوجتي بعد ظهر السبت 26 آب/أغسطس، ولكننا لم نصل في الوقت المناسب لتوديع ابننا جاك، الذي غادر بدوره مع قوافل القوات العسكرية المتجهة إلى القتال.

وعندما توجهت إلى مكاتب المجلس الأعلى للحزب في الانفاليد استقبلني الجنرال غاملان، وسلمني رسالة التعيين الصادرة عن دالادييه. تقول الرسالة: «تم تعيين الجنرال ويغان قائداً عاماً للقوات الفرنسية في شرق المتوسط في حال حصول تعبئة عامة.

وتوضع بلدان المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي ضمن نطاق العسكرية بموجب المادة 43 من القانون الصادر في 13 تموز/يوليو 1927.

ويكون الجنرال ويغان مسؤولاً عن تنسيق أعمال بعثاتنا العسكرية لدى الجيوش التركية واليونانية واليوغسلافية والرومانية. ويكون الجنرال ويغان على اتصال مباشر بالقائد العام في مصر، الذي يعطيه أي توجيهات بشأن التنسيق المحتمل مع القوات البريطانية الموجودة في بلاد المشرق».

حملت هذه الرسالة إلى جانب توقيع دالادييه، توقيع رئيس الجمهورية أيضاً..

بقيت بعيداً عن الجيش والحياة العسكرية أربع سنوات ونصف السنة، فلم أعد أملك المعلومات الكافية التي تخولني انتقاء خيرة الضباط لمساعدتي في مهمتي، لذلك طلبت المشورة، وتمنيت أن توضع تحت إمرتي مجموعة من الضباط قليلة العدد على أن يكون أفرادها من أصحاب الخبرة والمهارة.

تركت مطار لوبورجيه في الثامنة من صباح التاسع والعشرين من آب/أغسطس، بعدما تم إنجاز ترتيبات الرحلة إلى بيروت بسرعة، وبعد اجتماعي مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ومدير عام وزارة الخارجية، حطت بنا الطائرة في مرسيلية في الحادية عشرة، حيث كانت تنتظرنا طائرة من طراز «داوتني»، أعطيت الإذن بإبقائها في سورية، إلى أن توضع في تصرفي طائرة خاصة.

كانت محطتنا الأولى تونس، والثانية مالطة، حيث تعرضنا لبعض التأخير، فلم نغادر الجزيرة إلا في السابعة مساءً، ووصلنا إلى الإسكندرية في الواحدة فجراً في 30 آب/ أغسطس.. خلدنا إلى الراحة قليلاً في الإسكندرية، ثم تابعنا الرحلة وحطت الطائرة في بيروت في العاشرة صباحاً، أي بعد ست وعشرين ساعة من السفر.

فور وصولي إلى بيروت استدعيت المسؤولين المدنيين والعسكريين إلى اجتماع، شرحت فيه طبيعة مهمتي ومسؤولياتي في حال اندلاع الحرب ... وكان الجنرال غاملان قد أعطاني تعليمات سرية بشأن مهمتي قبل سفري إلى بيروت، هذا ملخصها:

«سوف يبذل الجنرال ويغان كل ما في وسعه لتنسيق عمليات الجيوش الحليفة في منطقة البلقان وشرق المتوسط، وعلى الجنرال ويغان أن يأخذ في الاعتبار أن قيادة القوات البحرية هي من صلاحية السلطات البريطانية في شرق المتوسط، على أن يكون الاتصال بين الجنرال ويغان والقوات البحرية الفرنسية عبر قائد هذه القوات.

تكون مصر مركزاً للعمليات في كل من مصر وجيبوتي وعدن وبلدان المشرق، ويكون القائد العام للقوات هناك إنكليزياً، الأمر الذي يوجب على الجنرال ويغان تلبية طلبات هذا القائد في ما يخص تنسيق عمليات القوات الفرنسية في بلدان المشرق، واستعمال أراضيها من قبل القوات البريطانية».

من ناحية أخرى كان بإمكاني الاسترشاد بمحتوى الضمانات التي أعطتها فرنسة وإنكلترة للحكومة اليونانية والرومانية، ومفادها: «أعطت الحكومتان الفرنسية والإنكليزية ضمانة لليونان ورومانية بمدهما بكل مساعدة متوافرة، في حال حصول ما يُعد أنه تهديدٌ لاستقلالهما يستوجب المقاومة بالقوة».

في 31 آب/أغسطس اجتمعت في الإسكندرية بترتيب من الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة المسيو دو ديتاس، بالقائم بالأعمال البريطاني، نظراً إلى غياب السير مايلز لامبسون، كما التقيت الجنرال السيد أرشيبالد ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، والأميرال السير أندرو كاننغهام، إضافة إلى قائد سلاح الجو الملكي في المنطقة.. وشرحت للضباط الثلاث طبيعة مهمتي في حال اندلاع الحرب، مركزاً على نقاط ثلاث:

1 ـ المشاركة الفرنسية في الدفاع عن مصر، وحجم القوات الفرنسية المتوافرة لهذه المشاركة، متمنياً على الجنرال ويفل إبقاء هذه القوات في تصرفي، إلا إذا كانت حاجته إليها ملحة جداً.

2 ـ الأهمية الواجب أن نعطيها لمدينة سالونيكا اليونانية، وهو أمر وافقني عليه الضباط البريطانيون.

3 ـ إمكانية استخدام قبرص من قبل القوات الجوية الفرنسية، على الرغم من اعتبار الجزيرة نقطة ضعف لكونها غير محمية كما يجب.

كان الجنرال ويفل أحد أبرع القادة العسكريين البريطانيين، وقد عمل خلال الحرب العالمية الأولى ضمن بعثة عسكرية بريطانية في القفقاز، كما شغل منصب رئيس الأركان للفيلد ـ مارشال اللنبي في الشرق الأدنى.. والجنرال ويفل رجل ذكي، مخلص ومجرب في أمور الحرب.. أما الأميرال أندرو كاننغهام فكان معروفاً عنه أنه عسكري ديناميكي ونشيط، وبعدما التقيته ثبت لي صحة ما يقال..

باختصار شعرت بالارتياح بعد اجتماعي إلى القادة العسكريين البريطانيين، لأني أدركت أنني أتعامل مع رجال جديرين بالثقة، وهكذا اتفقنا على أمور عدة، من بينها مسألة ضباط الارتباط في القاهرة وبيروت.. وبعد أسبوعين من ذلك وصل إلى بيروت الكولونيل سالزبوري جونز، الذي شغل مركز ضابط الارتباط فيها قبل خمسة عشر عاماً، عندما كان برتبة نقيب، وكنت يومها المفوض السامي، والحقيقة أنني سررت كثيراً بالاختيار الموفق للقيادة البريطانية.

قبل وصول الكولونيل جونز، وبعد عودتي إلى مصر، حصلت أشياء عدة، بعضها يستحق التسجيل.. ففي اليوم الأول من عودتي إلى بيروت أرسلت برقية إلى الجنرال غاملان أبلغه فيها بمضمون اجتماعي مع القادة البريطانيين، وبالنقاط الواجب الاتفاق عليها مع لندن. وعلمت أن الثلاثة أصدروا مذكرات بالمعنى نفسه، وأرسلوها إلى حكومتهم في لندن.

بعد ظهر اليوم نفسه بلغنا أن فرنسة أعلنت التعبئة العامة في مختلف أراضيها ومستعمراتها والبلدان المنتدبة عليها، إثر شنِّ غارات جوية ألمانيَّة على بولندا.

مصطفى كمال

المارشال إدموند اللنبي

الجنرال ديغول

الجنرال جزرح كاترو

الماريشال اروين رومل

الجنرال مونتغمري

الفيلد مارشال هارولد ألكسندر

الماريشال كلود أركينلك

جنرال بول ساري

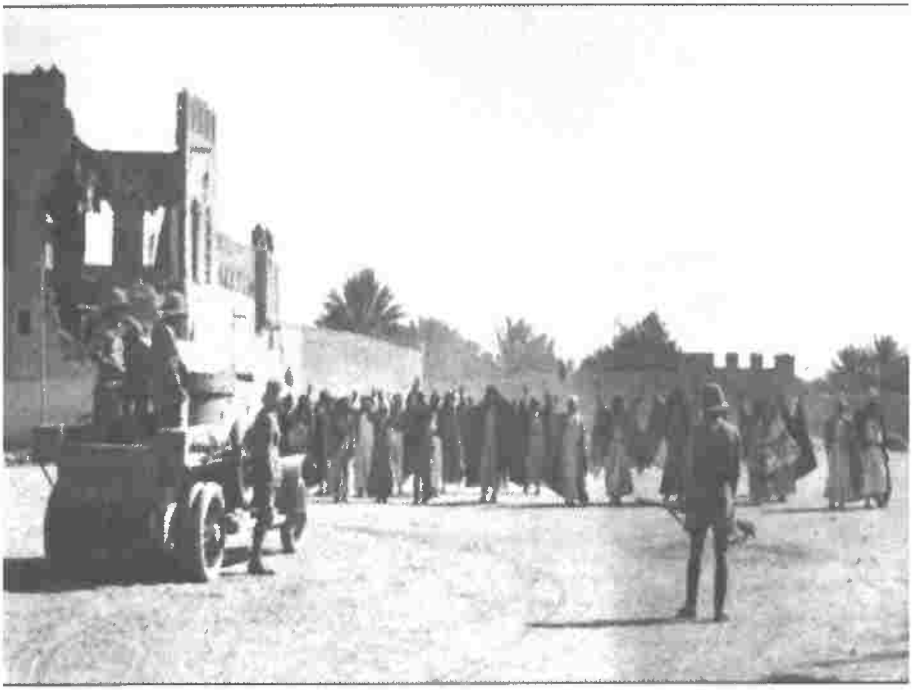

مدرعات بريطانية في الرمادية

في اليوم الآتي اجتمعت في السرايا الكبيرة، مع المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسورية غبريال بيو، والجنرال كابيو قائد القوات العسكرية هناك، والأميرال كاربانتييه قائد القوات البحرية في بلاد المشرق، واتفقنا خلال الاجتماع على النقاط التفصيلية لتوزيع الصلاحيات ولطبيعة مهمتي. وشدَّدتُ أمامهم على وجوب حماية الوضع الاقتصادي والمعيشي، لئلا تتكرر مآسي الحرب العالمية الأولى، مركِّزاً على ضرورة تأمين القمح للناس، ومنع أي محاولة للاحتكار.

في 3 أيلول/سبتمبر علمت أن وزارة الخارجية الفرنسية اتصلت بالحكومة اليونانية، للوقوف على مدى استعدادها للسماح للقوات البحرية الفرنسية باستعمال قاعدة سالونيكا.. وطلب مني الاتصال بالسلطات العسكرية التركية، بشأن استخدام قاعدة سميرنا أو غيرها.

توجهت إلى أنقرة جواً، واستقبلني في المطار السفير الفرنسي هناك المسيو ماسيفلي الذي عملت معه مدة من الزمن. وكان ماسيفلي خبيراً بشؤون تلك المنطقة ومؤيداً لقيام فرنسة بتحرك ما في البلقان في حال اندلاع الحرب.

مكثت في أنقرة أربعة أيام، قابلت خلالها رئيس الجمهورية عصمت إينونو، ووزير الخارجية سارادج أوغلو، والمارشال شاكماك. فوجدت لديهم تصميماً على إبقاء منطقة البلقان في منأىً عن السيطرة الألمانية، وشيئا من الأسف والعتب لتأخر العتاد الحربي الفرنسي في الوصول إلى تركية. وأوضح المارشال شاكماك أن الجيش التركي يعاني من نقص في المدفعية المضادة للدبابات والمضادة للطائرات، وفي الدبابات والعربات المدرعة والطائرات.

وأثناء وجودي في أنقرة، قابلت الكولونيل دوفاس رئيس شعبة العمليات في الجيش اليوناني، الذي أوفده رئيس أركانه الجنرال باباغوس خصيصاً، ليطلعني على التدابير التي اتخذتها اليونان للدفاع عن أراضيها. فأعربت له عن إعجابي بهذه التدابير، وعن ضرورة إنشاء جبهة موحدة في البلقان لمواجهة الألمان وربما الروس. مشيراً إلى أهمية قاعدة سالونيكا بالنسبة إلى قوات الحلفاء. وفي المقابل شدد دوفاس على وجوب تزويد الجيش اليوناني بالأسلحة التي طلبها من فرنسة وبريطانية.

وجدت لدى تركية واليونان، وكذلك لدى رومانية، تخوّفاً من مواجهة ألمانية، من غير أسلحة فعَّالة، ولعل هذا التخوف خلق شيئاً من التحفظ والتردد في مواقف هذه الدول.

وكان للموقفين الروسي والإيطالي الغامضين، دور أساس في توجه دول البلقان. وإيطالية بوجه خاص حيرت الدول المعنية، حتى أن إنكلترة اعتبرت أنها ميالة إلى السلام، وأنها لن تشارك الألمان في أي حرب محتملة.

أما أنا فقد ذهبت إلى أنقرة، وفي ذهني تصور آخر للموقف الإيطالي، إذ كنت أعد أن روما تتصنع الحياد والمسالمة عمداً وبشكل منسق مع الألمان يمنحهم حرية الحركة في منطقة البلقان، وأن الإيطاليين سيدخلون الحرب متى وجدوا الوقت المناسب. ولم تغير زيارتي لأنقرة شيئاً في تصوري، بل على العكس بتُّ أكثر اعتقاداً بوجوب السيطرة على سالونيك فور حدوث ما ينبئ: باشتعال نار الحرب.

ومن المفيد التذكير بالموقف التركي إزاء روسية، إذ أعرب لي المسؤولون الأتراك عن اعتقادهم بأن هتلر ما كان ليجرؤ على اجتياح بولندا لو أنَّ هناك معاهدة بين روسية وفرنسة وبريطانية، مخافة الدخول في حرب على جبهتين. واللافت أن الرأي التركي جاء في وقت كانت روسية أكثر ميلاً للجانب الألماني، وكأن أنقرة تلقت معلومات من روسية تنبئ بأن الروس سوف يغيرون موقفهم.

من أنقرة أرسلت إلى باريس التقرير الآتي: «يبدو أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية، لم تتوصلا بعد إلى توافق بشأن قيادة الحرب في الشرق الأدنى، أو أن تعليماتهما بهذا الشأن لم تبلغ المسؤولين المعنيين».

من ناحية أخرى تُعد دول البلقان أنها لا تملك القدر الكافي من المعلومات، وأنها تعاني من نقص في العتاد العسكري، والتذمر من هذا النقص ولد لديها موقفاً خجولاً.

وبما أن أي تدخل مفاجئ لإيطالية في الحرب يعرضنا للخطر الشديد في منطقة البلقان، يغدو من واجبنا الاستفادة من الوقت المتوافر لإتمام الاستعدادات التي تكفل التدخل القوي والسريع من جانبنا.

إن المفاوضات البطيئة والسرية لن تحقق لنا نجاحاً في المشرق، بل إنها ستضعف موقفنا في البلقان، وتحرمنا القدرة على المناورة. من هنا يصبح لزاماً على فرنسة

وإنكلترة بعد اتفاقهما على تصور واحد للمعركة في الشرق الأدنى العمل الجاد على انتزاع الموافقة على التعاون الكامل في دول البلقان.

لكن ذلك لن يصبح ممكناً من دون تحقق شرطين، هما: إزالة خوف هذه الدول من تهديد المحور عبر مدها بالأسلحة الحديثة، والاستعداد الجدي لتدخل عسكري كبير لقوات الحلفاء في سالونيك».

لطالما اعتقدت بأن تفوقنا على ألمانية غير ممكن، الا إذا أرغمناها على القتال على جبهتين. وما حصل في الحرب العالمية الأولى هو أكبر دليل على ذلك، فماذا كان سيتحقق في «المارن» أو حتى «فردان» لولا اندفاع الجيش الروسي في الجبهة الأخرى. والكل يعلم أن هذه المعادلة أثبتت صحتها في الحرب العالمية الثانية، التي لعب الروس فيها دوراً حاسماً.

ولكن لنرجع قليلاً إلى الوراء حيث كنا نقول إنّ الاتفاقية التي وقعها الألمان والروس لم تكن في الحقيقة الا وسيلة لكسب الوقت استخدمها الطرفان.

ولكن سرعان ما تبين لألمانية أن عنصر الوقت ليس عائقا، إذ خلال أقل من شهر كانت الجيوش الألمانية قد احتلت فرصوفية وأزالت الجيش البولندي من الخريطة العسكرية، بينما لجأت الحكومة وقيادة الجيش إلى رومانية، وبقي الشعب البولندي وحده يواجه ذل الاحتلال.

بعد عودتي من تركية إلى بيروت أجريت بعض الحسابات العسكرية، فحذفت أولاً احتمال وقوف الروس إلى جانب الحلفاء الذين كانوا على وشك توقيع معاهدة سياسية وعسكرية مع تركية، كما أن فرنسة وبريطانية أعطتا رومانية واليونان ضمانة خطية، في حين أن المؤشرات السياسية كانت تنفي وقوف يوغوسلافية إلى جانب ألمانية

هكذا كان بوسعنا الاتكال على أكثر من 100 فرقة عسكرية تعضدنا في وقف أي زحف ألماني في اتجاه سالونيك. لكني كنت أشعر مع ذلك بوجوب إرساء القواعد الصلبة والسليمة لتعاون أوسع نطاقاً، يؤدي إلى إنشاء جبهة عسكرية موحدة في البلقان يكون للقوات الفرنسية والبريطانية فيها دور أساس ومباشر.

الجنرال دنتز:
فرنسة تنقسم في دمشق
وتساعد الكيلاني في العراق

بين 18 و20 نيسان/أبريل 1945 تجمعت باريس لحضور محاكمة هنري فرنان دنتز، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان، والرجل الذي كان يمثل حكومة فيشي حين دخلت قوات «فرنسة الحرة» إلى المشرق! وليست هناك كتب كثيرة أو قليلة عن حياة دنتز، باستثناء الكتاب الذي روى وقائع محاكمته ومحاكمة الأميرال إستيفا! على أن وقائع المحاكمة ومطالعة دنتز أمام هيئة المحكمة العليا، تشكل واحدة من أهم القراءات والتحليلات السياسية لتلك المرحلة، وربما من أفضل ما قيل في كتب العلوم السياسية عن مرحلة الصراع الفرنسي ـ الألماني ـ البريطاني في المشرق.

يصف الكتاب بدء المحاكمة في 18 نيسان/أبريل بالقول إن دنتز الطويل القامة النحيل الجسم دخل القاعة متعباً شبه منهك. وحين طلب منه القاضي أن يقف، استأذنه بالبقاء جالساً فسمح القاضي بذلك. غير أن هذا الرجل المتعب (63 سنة)، ما لبث أن انتفض واقفاً ليعلن اسمه وهويته: «دنتز، 63 عاماً، جنرال في الجيش، حامل وشاح ضابط أكبر في جوقة الشرف، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان والقائد الأعلى السابق لجيوش المشرق».

ثم بدأ المدعي العام في قراءة القرار ـ الرواية:

«تلقت الهيئة الاتهامية في محكمة العدل العليا في 4 نيسان/أبريل 1945 التقرير التالي:

«إن الهيئة الاتهامية التابعة لمحكمة العدل العليا، المنعقدة تحت اسم الغرفة الاتهامية، وبموجب الأمر الصادر في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1944، قد اجتمعت

في 4 نيسان/أبريل 1945 للتداول في المسألة الموجهة ضد دنتز (هنري ـ فرنان) وغيرار (جاك) الفار (...)، وبعد المداولة تبين أنه تجمعت ضد هذا المتهم دلائل كافية، إنه خلال عمله مفوضاً سامياً في سورية ولبنان، وقائداً أعلى للقوات المسلحة هناك، أقدم بالتعاون مع الموظفين «ران» و«غيرار» على تقديم المساعدة للعراق في ثورته ضد إنكلترة، وقدم التسهيلات للألمان من أجل استخدام المطارات السورية، وتقديم المؤن الضرورية لطيرانهم.

«وكذلك ساعد في ظروف مشابهة على نقل أسلحة مخزونة من سورية إلى العراق، وقاد وساهم في معركة دموية ضد قوات فرنسة الحرة، والقوات الإنكليزية الحليفة. واتفق أيضاً مع «ران» على منح القواعد الضرورية للقوات الألمانية، لكي يمكنها من قصف القوات البريطانية من الداخل، وكذلك قوات فرنسة الحرة، ولذلك فهو متهم بالتخابر مع العدو من أجل ترجيح قوته، وهي جريمة يعاقب عليها بموجب المادة 75 من قانون العقوبات».

بعد قراءة القرار الاتهامي يفتتح رئيس المحكمة، القاضي مونيبو، المحاكمة بالقول:

- رئيس المحكمة الأول: في تلك الساعات المظلمة من تاريخنا، كنت حاكماً عسكرياً على باريس، إذ كانت تلك لحظة انكسارنا، وقد وضعت لفترة قصيرة على ما أعتقد في السجن الألماني، وبعد إطلاق سراحك بعثت بك الحكومة حاكماً عسكرياً على مرسيلية تقديراً لك. ولأنك كنت معاوناً للجنرال ويغان في سورية فإن الحكومة جعلتك فيما بعد مفوضاً سامياً هناك. وقد توجهت إلى منصبك على ما أعتقد في نهاية العام 1940.

- نتز: ذهبت في 16 كانون الأول/ديسمبر 1940.

- رئيس المحكمة الأول: كانت تسود سورية حالة دقيقة جداً وصعبة جداً لم تكن تتطلب، في رأيي، الليونة بل السلطة، والحزم، والعزم على خدمة فرنسة لا أوروبة. ومن سوء حظك في هذه المرحلة أن ألمانية، التي بدأت السعي نحو هدفها بالسيطرة الكونية، وإلى تخريب الوضع في إنكلترة. يجب أن نتذكر

أن إنكلترة كانت تحارب وحيدة، وأنها كانت وحدها المدافعة عن الحريات في العالم، وإذا كان لا بد من إلحاق الأذى ببريطانية ومقدرتها على المقاومة، فالأفضل أن توجه لها الضربة في هذا الموقع، ومن سوء حظك أن الطريق إلى الهند وقناة السويس تمر في سورية.

لا تمر في سورية فقط طريق الهند وطريق السويس، بل تمر فيها أيضاً ما أسميه طريق النفط، وطريق النفط كانت في أهمية الطريق المؤدية إلى السويس أو إلى الهند.

هناك أيضاً، في مثلث صغير من آسية الصغرى، بلد يدعى العراق، هذا البلد وضعته عصبة الأمم تحت الوصاية الإنكليزية. هذا البلد بدأ بالتململ بسبب ما نسميه الطابور الخامس. المسنود إلى الدبلوماسية الألمانية القمعية، لكنها ليست من غير ذكاء. وقد بدأ هذا الطابور بالقيام بعمل يمكن أن يكون قاتلاً لمصالح بريطانية في العراق، ونتيجة ذلك قامت في العراق ثورة ضد الانتداب.

أريد أن أعرف منك عند هذه النقطة، ماذا كانت سياستك في العراق خلال الثورة؟ وما هي التعليمات التي كنت تتلقاها من حكومة فيشي؟ كيف فهمتها؟ وكيف نفذتها؟...

- الجنرال دنتز: كنت قد خدمت في سورية ولبنان في السابق كرئيس لجهاز الاستخبارات مع الجنرال ويغان، ثم بقيت عاملاً مع الجنرال ساراي، ومع المسيو دو جوفنيل. وبعد ذلك حلَّ مكاني في هذا الموضع الجنرال كاترو. حين وصلت إلى سورية أول مرة في العام 1923. قلت للجنرال ويغان إنني أعرف القليل عن السياسة الداخلية في سورية، فقد جئت إلى هناك من إسطنبول، حيث عملت مدة عامين أيضاً رئيساً للاستخبارات، وشهدت شيئاً من الصراعات الأوروبية، لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن السياسات الداخلية في سورية . قلت يومها للجنرال ويغان بالحرف:

«إنك سوف تعيِّنني رئيساً لجهاز الاستخبارات، أي مديراً سياسياً للمفوضية السامية. إلا أنني لا أعرف جيداً المسألة الداخلية».

وردَّ عليَّ بالقول: «إن هذا لا يهمني. المسألة الداخلية سوف أتولاها بنفسي. لكن هناك شيء ألاحظه، وهذا ما هو مهم لدي، وهو أن جميع الخضات في سورية ليست نتيجة موجات تُولَد في سورية، بل في جميع الدول العربية وجميع الدول الإسلامية، وخصوصاً مصر. لذلك أنا بحاجة إلى رئيس استخبارات يعرف أطراف سورية، أما الداخل فأنا أتولاه، لأنني ألاحظ أنه من الخارج يأتي الخطر كله، وجميع التأثيرات التي تجعل عملنا صعباً في سورية».

لقد بقيت هذه الجملة محفورة في نفسي، خصوصاً أنها تفسر كذلك بعض النقاط التي كانت تعدل موقفي فيما بعد. لقد ذهبنا إلى سورية بموجب الانتداب الذي أعطتنا إياه عصبة الأمم في سان ريمو في العام 1920، حين أعطت أيضاً لبريطانية الانتداب على العراق وفلسطين.

إن إنكلترة التي تتبع سياسة خارجية أكثر ليونة من سياستنا بكثير، أنهت انتدابها على العراق فوراً. لقد قلتَ للتوِّ يا سيدي الرئيس في مطالعتك: إن العراق كان تحت الانتداب البريطاني، اسمح لي أن اعترض. إن الانتداب البريطاني على العراق منتهٍ، بل هو انتهى تقريباً قبل أن يبدأ. إذ ما أن دخل الإنكليز إلى العراق، حتى شعروا أنه يجب أن يفعلوا ذلك: لقد أقاموا حكومة، ووضعوا دستوراً حديثاً وأنشؤوا مجلس نواب ومجلس شيوخ، ثم أعطوا العراق الاستقلال، وأدخلوه عصبة الأمم.

إن الذي كان قائماً بين إنكلترة والعراق هو معاهدة! معاهدة يكون من خلالها لإنكلترة بعض الميزات، وتتعهد بموجبها بدعم العراق، على ألا تتجاوز قوتها العسكرية هناك، في أي وقت من الأوقات حجماً معيناً! إن عدم تطبيق هذا البند كان مبرراً ـ وليس بسبب ـ الثورة في العراق. على أي حال الانتداب على العراق انتهى، وبقي الانتداب على فلسطين: وهذا يوصلنا إلى الانتداب في سورية ولبنان. وهنا دعني أسجل ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: لقد وصلنا إلى سورية تحت (يافطة)، ليس من الضروري أن تكون هي الأمثل، ولطالما حاولنا أن نحول هذه (اليافطة) إلى راية. لقد جئنا كحماةٍ للمسيحيين.

هذه نقطة انطلاق خاطئة. إن جزءاً من لبنان مسيحي، لكن سورية في مجملها عربية محمدية. ومن ثم فإنه بمجرد أن دخلنا إلى سورية كحماة للمسيحيين، قد وضعنا سياستنا في مأزق، وكان ذلك سبباً لكثير من الصعوبات. وذلك كله لم يكن شيئاً. ولا بد لك أن تتذكر أنني بحكم مسؤوليتي كنت أتلقى البرقيات التي تبعث بها حكومة فيشي! أنا الذي كنت أراقب حكومة فيشي.

هذه إذاً كانت الصورة السياسية العامة. ودعني الآن أقول بضع كلمات، من وجهة نظر فرنسية، حول الوضع في سورية، كما وجدته حال وصولي. لقد وجدت البلد منقسماً تماماً: من جهة الجالية الفرنسية التي كانت تحتاج إلى كل عناية، ومن جهة أخرى السوريون واللبنانيون. وسوف أعرض أمامك إذاً واقعين مختلفين.

الجالية الفرنسية كانت منقسمة جداً. إذ بالنسبة إلى بعض أعضائها كان يتوجب على حكومة فيشي أن تطرد الجميع، وكان هؤلاء يتهمون المفوضين السامين السابقين.

إلا أنني طبعاً لم أوافق. وقد ألقيت كلمة من الإذاعة قلت فيها إنني أعتمد على الجميع، ولا أريد أن أخص أحداً بشيء. لقد أردت تقدمية لا رجعية. وكما قلت فإنهم كانوا يزعمون أن إدارة الانتداب خاضعة لحزب سياسي من الماضي، وأنا لم أرد أن أجعلها خاضعة لكنيسة، وقد برهنت على ذلك بالأعمال.

لقد حافظت على جميع الموظفين على الرغم من الحملات عليهم. وبين أكثر الموظفين تعرضاً للحملات، كان المسؤول عن الإرشاد العام: المسيو بونور، الذي كنت قد عرفته وقدرت مزاياه خلال إقامتي الأولى. كان المأخذ عليه هو ولاؤه للنظام الماضي، ومقاومته للحكم الجديد. وقد منحته ثقتي وطلبت منه تنظيم الشبيبة الفرنسية في المشرق ... إلخ.

- رئيس المحكمة: إنك تلاحظ أنني لم أقاطعك، لأنني أعتقد أن لك الحق في الإدلاء بجميع الإيضاحات. إن الدفاع هنا يجب أن يكون حراً.
- الجنرال دنتز: طالما تمنيت مجيء هذا النهار.

- الرئيس: أرجو أن نأتي إلى النقطة الرئيسة (الأسلحة والطائرات إلى العراق).
- الجنرال دنتز: سوف أصل إلى ذلك الآن، لكن مع استدارة قصيرة.

يجب أن أقر أن الوضع الداخلي في سورية لم يكن حسناً، ومن ثم فقد كان يتطلب كل عنايتي، وهذا يفسر كلمة كانت ترد دائماً في جميع البرقيات، ونجدها أيضاً في جميع المناشير التي كانت توزع ضدي، وهي كلمة «السر» الشهيرة! دعني أوضح: حين وصلت إلى سورية كانت الضمانة السرية قد ألغيت. ففي العام 1939 مع بداية الحرب تم إلغاء مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، ورئاسة الجمهورية، واستبدلنا كل هذه المؤسسات بحكومات موظفين، وهذه الحكومات لم تكن تملك المقدرة ولا السمعة لتمثيل الرأي العام! لكن الشعوب السورية (التعبير لدنتز) قبلت بمثل هذه الحكومات، مادامت ظروف الحرب تفرض ذلك، لكن بعد الهدنة وانتهاء القتال قالوا لأنفسهم: الآن حان الوقت لأن نبحث عن شيء آخر.

رأيت نفسي آنذاك أمام وضع جديد. كانوا يقولون «خلصونا من حكومات الموظفين، وأعيدونا إلى النظام البرلماني». حتى أن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك ليقول «هذا هو الوقت لإعلان الاستقلال الكلي للبلاد. الانتداب انتهى، فلنتجه بخفة نحو الاستقلال ونحو المصائر الجديدة».

لكن ثمة ظلاً كان خلف ذلك كله، والأفق لم يكن جلياً على الإطلاق. ففي داخل البلاد كانت هناك مؤامرات هائلة لا بد من تلافيها. كان لا بد من الحذر. فالرايخ كان يظهر الان في مظهر المنقذ المحرر! والرايخ هو الذي سيوحد البلاد العربية، ويحررها ويحيي الإمبراطورية العربية! ذلك الاستقلال وتلك الإمبراطورية لن تأتي بهما فرنسة، فهي الآن مهزومة، ضائعة النفوذ! أما بريطانية فكانت ـ في الذهن العربي ـ الدولة التي بشرت بفكرة الانتداب وهي العقبة الأساسية في وجه الحرية، في حين أن الرايخ المنتصر، المقترب، الذي أصبح في اليونان وعلى ضفاف البوسفور هو المحرر.

في الوقت نفسه بدأت في سورية حملة بالغة العنف، وقد زاد في تحريك هذه الحملة موظف لم أطلب مجيئه في أي وقت، أرسلته إليَّ حكومة فيشي – وزارة الخارجية في

هذه الحكومة – هو السيد م . فون هنتنغ. جاء السيد فون هنتنغ إلى سورية، وبقي فيها من 15 كانون الثاني/يناير إلى 15 شباط/فبراير. كان أحد الخبراء في شؤون الشرق الأدنى. وكنت أعرف تماماً ماذا يفعل. وقد اتهمتني بعض المناشير بأنه يفعل بعض الأشياء باسمي. كنت أعرف ذلك تماماً، كما يعرفه واضعو المناشير. لكن الحقيقة أنني كنت أحاول أن أضبط من أعماله، في حين أن كل ما فعله واضعو المناشير هو أنهم دونوا ذلك.

انصرف فون هنتنغ على الفور إلى التجول في طول البلاد وعرضها، وكان ذلك السبب في حدوث غليان شديد. وقد أجرت معظم الشخصيات الوطنية والسياسية اتصالاً به، إما مباشراً أو عن طريق آخرين. وبالإضافة إلى الأحزاب القائمة، شكلت حركة جديدة. وكان الطلاب التقدميون بصورة خاصة، يشكلون تجمعات تهدف إلى إقامة حزب يحل محل الأحزاب القديمة، ومحل السياسيين الذين وصفوهم بأنهم «سياسيو مآدب».

وهكذا انفجر في دمشق وحلب في الثامن من شباط/فبراير نزاع طلّابي: إضرابات في المدارس، إغلاق الأسواق، خطب عنيفة في المساجد ... إلخ. أما فرنسة فكما قلت كانت مسحوقة، وبريطانية كانت عقبة في وجه الاستقلال العربي. كل الأنظار كانت تتجه إلى ألمانية. وقد ظهرت صلبان معقوفة على جدران دمشق، وبدأت مغازل السوق تصنع أعلاماً هتلرية.

أبلغت السوريين أن إعلان الاستقلال لايزال سابقاً لأوانه، وأنه يجب عدم المراهنة على المستقبل، وأن الحرب لم تنته بعد، وأنني قررت – على أي حال – أن أمنحهم كل ما يرضي مطامحهم الشرعية! أقدمت إذاً على حل حكومة الموظفين، وشكلت حكومة من السياسيين والبرلمانيين في دمشق وبيروت، ودعمت ذلك بتشكيل مجلس استشاري. باختصار: مع بداية نيسان/أبريل كانت الحالة قد هدأت.

وباختصار تجنبت عملاً استقلالياً سابقاً لأوانه من طرف واحد، كذلك الذي وجدت فرنسة نفسها أمامه في كانون الأول/ديسمبر 1943، والذي كان يمكن أن ينفذ ضد فرنسة لحساب ألمانية.

الآن أصل إلى موضوع الطائرات الألمانية.

في 2 نيسان/أبريل قام رئيس المجلس العراقي السابق رشيد (عالي) الكيلاني بانقلاب، يدعمه الجيش، واتهم بريطانية بخرق معاهدة السلام، لكن من دون أن يعلن حالة الحرب ضدها، وعلى الفور قام غليان شديد في سورية، بعدما جاءت الشرارة من العراق. في هذا الوقت كانت ألمانية في ذروة قوتها، إنها سيدة كريت، تمتد قوتها عبر إيطالية وتحاذي الدردنيل، ومن ثم فهي في موقع القادر على التدخل في سورية.

هكذا ذهب عدو إنكلترة القديم، مفتي القدس الأكبر، إلى الحرب، يغلف الحملة على الاستعمار البريطاني بالدعوة إلى الانضواء تحت لواء دول «المحور» المحررة. هنا ندخل، سيدي الرئيس، في جوهر الموضوع. إن هذا التهديد لم يَفُتْ مندوب إنكلترة الذي كان المستر هافارد.

كنت، بعد وصولي إلى سورية في 29 كانون الأول/ديسمبر، قد استقبلت جميع أفراد السلك الديبلوماسي المعتمد لدى المفوضية السامية. وكان بين هؤلاء القناصل القادمون من جميع البلدان: تركية، البرازيل، الأرجنتين السويد، بل حتى اليونان، حتى بولونية. وكان هناك مندوب عن القنصلين البريطانيين العامين في حلب ودمشق، والقنصل العام الأميركي، والمستر فون هنتنغ الذي في بيروت.

في لقاء الوصول وجدت المستر هافارد الذي بدا محرجاً جداً، لكنني استقبلته بحرارة، قائلاً له بالحرف إنني أتمنى قيام أطيب العلاقة مع مندوبي بريطانية العظمى التي شاركت فرنسة في حربين ضد ألمانية. وذهب المستر هافارد مطمئناً كل الاطمئنان.

في بداية الحرب كان (هافارد) قد قال لسلفي، المسيو بيو، إن بريطانية لن تقدم أي مطالب ضد أن فرنسة في شأن بلدان المشرق خلال الحرب، لكن بعد الحرب يجب أن يفهم أنّ فرنسة لا تستطيع أن تحافظ على التميز الذي تحتله حتى الآن، وإننا سنلقى، في هذا الشأن، تعويضاً حسناً. لكن هذا الأمر لم يؤثر إطلاقاً في علاقتنا، وكنت أستقبل المستر هافارد دائماً في ود.

عندما جاء يزورني في 29 نيسان /أبريل كان الوضع شديد الخطورة، وكان للقلق البريطاني الذي عبر عنه ما يبرره. بل كنت أشاركه قلقه تماماً: إن سيطرة دول المحور على بحر إيجه تمتد إلى كريت ورودس. الحدود المصرية مهددة. العراق في ثورة عسكرية، وإن تكن غير مسلحة بعد. وفي مثل هذه الحال قد تفكر ألمانية في هجوم على قبرص، يجعلها تطوق حوض المتوسط الشرقي، وإذ تقيم رابطاً مع العراق ، تسيطر على القواعد العسكرية البريطانية هنا يكمن الأمر الذي يشكل كارثة لا حدود لها.

لقد كان الألمان على وشك أن يهاجموا قبرص. بل إن المستر هافارد قال لي إنه قد يغريهم البحث عن موطئ قدم، بمهاجمة المطارات السورية من أجل استخدامها في الهجوم على قبرص، إلا أنني طمأنته على الفور مؤكداً له أنني لن أسمح باستخدام المطارات السورية لأي كان، وأنني سأحرسها بكل ما أستطيع ضد أي هجوم مفاجئ. وعمدت على الفور إلى نشر قوات مدرعة حول مطارات دمشق وحلب وبيروت. وأبرقت إلى فيشي بقراري هذا في الثاني من أيار/مايو. وفي هذه الأثناء قام المستر هافارد بزيارتي من جديد معلناً امتنانه وشكر حكومته. وقلت للمستر هافارد الآتي:

«حضرة القنصل العام، دعني أعرض لك الإجراءات التي اتخذتها، وقد اتخذتها على مسؤوليتي الخاصة، لقناعتي بأنني في هذه القضية على حق. إذا جاء الألمان ونزلوا بالقوة في مطاراتي فعندئذٍ هم لا أنا يتحملون مسؤولية خرق اتفاقات الهدنة. وعندها يحق لي أن أقاومهم. ولا بد أن أخبرك أنني أحلت الأمر إلى حكومة فيشي، ولا أدري ما هي التعليمات التي قد تعطى لي، إذ في هذه الحال لا بد لي أن أنفذ ولو جزئياً».

وافقني المستر هافارد على ذلك، وأضاف هذه الجملة التي أعدها مهمة: «بالطبع لا نتوقع منك التمرد».

هذه الجملة بالغة الأهمية، لأنها توضح الأمر كله. لقد جاء القول من فم المندوب البريطاني نفسه، حول استحالة مثل هذا السلوك. والواقع أنه في 2 أيار/مايو، أي يوم جاء المستر هافارد لزيارتي وقال هذا الكلام، انفجرت المعارك بين إنكلترة والعراق، إذ هاجمت القوات العراقية، القوات البريطانية المتمركزة قرب بغداد. وقد دعا الزعماء

الدينيون في العراق شعوب الشرق الأدنى إلى الجهاد ضد إنكلترة، وقامت تظاهرات في كل المشرق، بل وعلى الأرض الإنكليزية نفسها، تأييداً للمتمردين العراقيين. وفي دمشق نفسها حطم زجاج القنصلية البريطانية.

إن الوقوف عكس التيار كان يعني دعوة الألمان فوراً، واستحضارهم إلى الشرق الأدنى! في حين أن المساعدة التي قدمناها للعراق ـ وسوف أثبت لكم ذلك ـ كانت وهمية ولا تساوي شيئاً، سواء بالنسبة إلى موضوع الطائرات أو موضوع الأسلحة! إن انفجار المحاولة البريطانية ـ العراقية أثار المشاعر إلى حدٍ بعيد في سورية، وحتى في لبنان، حيث انفجرت التظاهرات المعادية في كل مكان. وكان يتوجب عليَّ أن أضبط هذه الحركة، بحيث لا تلحق الضرر بالمصالح الفرنسية في المستقبل، تحت أي ذريعة من الذرائع، وأن أسعى إلى عدم استغلال هذه الأحداث من قبل الألمان، بحيث يصبح لهم موطئ قدم في سورية.

وإني آمل أن أبرهن لك على أن هذه الأهداف قد تحققت.

- الرئيس الأول: عند هذه النقطة من مطالعتك أحب أن أقدم اعتراضاً، لا شك يوافقني عليه حضرة المدعي العام: في هذه المرحلة التي تشير إليها، ألقى الماريشال بيتان خطاباً قال فيه إن فرنسة لا تنسى التزاماتها تجاه حلفائها السابقين، وأنها لن تقدم على أي عمل غير ودي تجاههم. لكن في إمكاننا القول ـ ويوافقني المدعي العام على ذلك ـ إن حكومة فيشي استغلت السرية التي نتحدث عنها من أجل اتباع سياسة مزدوجة. إذ في الوقت الذي كانت حكومة فيشي تعلن أنها لن تقدم على خطوة غير ودية تجاه انكلترة، فقد كانت في صدد صفقات تعقدها مع ألمانية، وهي صفقات ما لبثت أن انتهت إلى تعاون عسكري بين فرنسة وألمانية.

في ضوء هذه التفسيرات، يمكن القول إن تلك الاحتياطات لم تكن سوى غطاء لتدخل عدد من الشخصيات الألمانية في المشرق، والذي اتخذ حجماً مقلقاً خصوصاً فيما يتعلق بالمدعو «ران»، الذي نراه في هذه المحاكمة كما رأيناه في محاكمة الأميرال

إستيفا، حيث أدى الدور نفسه تماماً. ذلك أن فرنسة في تلك المرحلة كانت متوهمة بأن لها مفوضاً سامياً في المشرق، وكانت متوهمة بأن لها مقيماً عاماً في تونس! لكن تبين أن المستشار الألماني ران كان رديف المقيم العام . ثم إننا نعود فنجد هذا المستر ران عندك، في مرحلة يفترض فيها المحافظة على تلك السرية التامة، ولذلك أقول لك. بل المدعي العام هو الذي يقول لك: «السرية تجاه من؟ تجاه إنكلترة بالطبع».

في هذه الفترة كان يرافق «ران» عدد من الشخصيات الألمانية! وكانت البرقيات تحدد الشروط التي يجب أن يأتي فيها أولئك الألمان: أن يأتوا بثياب مدنية! أن يأتوا خفية بحيث لا يعرف أحد في المشرق بمجيئهم. أما ران نفسه فقضت التعليمات ألا يأتي تحت اسمه الحقيقي، بل تحت الاسم الفرنسي رينوار، اسم الفنان الكبير! ثم بعد مجيء الألمان السبعة أو الثمانية بقليل، وقعت ثلاث اتفاقيات فرنسية ـ ألمانية سوف أعود إليها لاحقاً. إذاً، إلى ماذا أدت الاحتياطات التي اتخذتها؟ لقد أدت، بالتأكيد، إلى شعور بريطانية بالقلق على مصالحها الحيوية. وقد تصرفت بريطانية كما يجب، وكانت النتيجة ما سمي آنذاك، وما سميته أنت أيضا على الأرجح، الاعتداء على المشرق. إن هذا العدوان على المشرق لم يكن سوى الدفاع الشرعي عن النفس. وهذا العدوان هو الذي أدى، كما تعرف ، إلى أن تطلق النار على الفرنسيين وعلى الإنكليز.

- الجنرال دنتز: هناك شيء يجب أن أقوله. لقد تحدثوا عن اتفاقيات وبروتوكولات، إن هذه اتفاقيات والبروتوكولات عرفت بها أول مرة خلال التحقيق.

- الرئيس الأول: لقد تلقيت برقيات تعكس هذه اتفاقيات. في هذه اتفاقيات يقولون: «لا نستطيع أن نعّد ألمانية عدواً بسبب اتفاق المهنة، فإننا مرغمون على إظهار الكثير من الاعتبار لها. أما بالنسبة إلى إنكلترة فيجب ألا نقوم بأي اعتداء عليها، ولكن إذا أقدمت هي على ما يسمونه عدواناً ـ وهو في الواقع دفاع شرعي عن النفس ـ فلك الحق آنذاك في اتخاذ كل الإجراءات الحربية الأكثر ضراوة ضدها.

- الجنرال دنتز: كنت أعارض بشدة جميع بنود الاتفاقيات
- الرئيس الأول: والبرقيات التي تلقيتها بخصوص تلك الاتفاقيات؟
- الجنرال دنتز: كانت مصاغة بغموض يترك لي حرية التصرف، في حين أن البروتوكولات...
- الرئيس الأول: أعتقد أن في إمكاني أن أقول لك شخصياً إنه يصعب علي جداً الأخذ بنظرية الخيانة بسبب الإهمال. ومن الصعب جداً علي أن أقر بأن مفوضاً سامياً ـ أي الرجل الذي يفترض أنه ذكي وحذر وذو مبادرات، والذي هو في الوقت نفسه عسكري من طراز رفيع ورجل سياسي وإداري كبير، مثل هذا الرجل ـ لا تثير تلك الاتفاقيات شكوكه، ولا يرد عليها على الفور.
- الجنرال دنتز: أجل، لقد أرسلوها. لكننا سوف نرى في البرقيات نفسها، بأي طريقة استطعت أن أتصرف. بالنسبة إلى قضية السر، لا يعني ذلك إطلاقاً سراً على بريطانية التي كانت دائماً على اطلاع على ما يجري. إليك ما فهمته دائماً على أنه «سر»: لم أرد أن يدري السوريون بتلك الحركة، لقد وجدت نفسي أمام ثورة سورية داخلية، والسرية كان تطبق فقط على الناس في الداخل. لقد كان الهدف أن نحول دون سقوط الناس في أحضان ألمانية.

أما السر فيما يتعلق ببريطانية، فقد كان الأمر محدداً بالنسبة إلي. لقد وصل «ران» و«غيرار» إلى حلب مساء التاسع من أيار/مايو، واستقبلتهما صباح العاشر منه. في ذلك اليوم أيضاً وصل الجنرال كاترو إلى القدس، وتسلم الجنرال الإنكليزي قيادة القوات البريطانية في القدس. إذاً، مسألة السر فيما يتعلق بالإنكليز قد سويت تماماً. وسوف ترون أن الإنكليز كانوا على اطلاع تام على ما يجري في مطاراتنا، وكانوا يستعدون لنسف الأماكن التي ليس فيها ألمان. وهذا يثبت أنه لم تكن هناك ضرورة للمحافظة على أي سر فيما يتعلق بالإنكليز.

أما قرار السماح للطائرات الألمانية العاملة في العراق بالمرور في سورية، فقد اتخذه الأميرال دارلان في باريس في 5 أيار/مايو.

في 8أيار/مايو وصلتني برقية من الأميرال دارلان، تبلغني بوصول ضابط ألماني في اليوم اللاحق، الميجور فون بلومبرغ المولج بمهمة استطلاع المدرجات الصالحة للطيران. استدعيت قائد القوات البرية في دمشق وأطلعته على المهمة، وطلبت إليه أن يرد على السؤال المطلوب بقدر الإمكان. ومن بعدها لم أعد أسمع شيئاً عن بلومبرغ. كل ما أعرفه أنه كان من أوائل الواصلين إلى سورية، وأنه ذهب من هناك إلى بغداد، حيث قتله جنود عراقيون.

في 9 أيار/مايو كنت لا أزال في دمشق، حين تلقيت اتصالاً هاتفياً من المدعو غيرار، الذي وصل إلى حلب، وطلب رؤيتي صباح اليوم اللاحق. لم يخطر لي أبداً ما هي مهمة هذا المسيو غيرار. فقد ظننت أنه في الطريق إلى جيبوتي. استقبلته بترحاب، لكنني قلت له إنني على موعد في بيروت، ولن يكون في استطاعتي الاجتماع به سوى في الغد.

على أنه قال لي «عفواً، لكنني قادم من باريس، وقد جئت بطريق الجو. إن المسألة ملحَّةٌ جداً ولا بد أن تستقبلني غداً في بيروت. وأنا لست وحدي على أي حال». تساءلت من ترى يرافقه؟ وأخيراً تحت إلحاحه قبلت، وتوجهت صباح الغد إلى بيروت.

كان ذلك في العاشر من أيار/مايو. وفي الحادية عشرة استقبلت المسيو غيرار في قصر الصنوبر في بيروت. كان غيرار وحده، وقد أطلعني على أوامر الأميرال دارلان وقال: «إنني منخرط في مفاوضات بالغة الأهمية مع الألمان، قد تنتج منها فوائد كبرى في الإفراج عن أسرانا. وإنني آمل في الحصول على تسهيلات تعطى للألمان في سورية، لمساعدتهم في العراق، على أمل أن نحصل منهم على فوائد ضخمة».

في رأيي، كان ما يجب أن نفعله هو إنقاذ مصالح فرنسة الدائمة، وذلك بإعطاء تسهيلات للرايخ في سورية، مع السعي إلى حد المضاعفات الداخلية. لذلك كان لا بد من ضبط المطالب الألمانية من جهة، ومن جهة أخرى تلبية المطالب الضرورية للحيلولة دون احتلال دائم. تلك كانت خطتي، تلك كانت سياستي التي لم تتغير أبداً.

بعد ذلك قال لي المسيو غيرار إنه في رفقة الدبلوماسي الألماني ران، المكلف بتنفيذ هذه المهمة في العراق، ثم قدمه إلي.

عرفت منذ تلك اللحظة أن غيرار نفسه قد خالف مهمته الأساسية. فقد كانت مهمته أن يحول دون أي اتصال بيني وبين الألمان. لقد حدد الأميرال دارلان مهمته بطريقة تجعلني في إعفاء عن أي اتصال مع الألمان، في حين أن أول ما فعله بعد القليل من المقدمات والشروح أنه جعلني على صلة مع ران. إذاً لست أنا الذي طلب الاتصال «بران».

كان المسيو ران مكلفاً بتدبير المساعدة للعراق. وقد أبلغني أن الأمر يتعلق بنقل طائرات ألمانية إلى هناك، ترفع الألوان العراقية وتتجه إلى الموصل وبغداد، لكنه لا يعرف عددها، ويريد لها التزود بالوقود.

عرفت أيضاً أن هذه الطائرات لن تبقى أكثر من 12 ساعة، وأنها ستصل في المساء وتسافر صباح اليوم الآتي. طبعاً سيدفعون لنا ثمن الوقود، وطواقم الطائرات لن تغادر المطارات. ثم أبلغني المسيو ران أنه سيقطن في سورية تحت اسم رينوار، وأنه من الأفضل ألا يتنقل باسمه الألماني. انتهى اللقاء عند هذا الحد فيما يتعلق بمسألة الطائرات، وتوجه المسيو ران إلى دمشق.

كانت ردة فعلي عنيفة، وقد قلت لغيرار بعنف «إن هذا الذي تفعلونه عمل عبثي من الوجهة العسكرية والتقنية. إن هذا الدعم للعراق لن يؤدي إلى شيء. كيف نقيم قاعدة حين لا يكون لدينا خط تموين ولا أي مساندة»؟

لكنني قلت في نفسي سوف أقدم لهم تسهيلات الترانزيت، لكي لا يقيموا منشآت ثابتة. بعد العاشر من أيار/مايو وصلت برقية من الأميرال دارلان، تنبئ بوصول طائرة ألمانية عليها مهندس. ثم وصلت ثلاث طائرات تحمل الألوان العراقية، وأكملت إلى بغداد، وصلت هذه الطائرات في 11 أيار/مايو قبل أن نستطيع إصدار أي تعليمات حول استقبالها! هبطت الطائرات في قاعدة رياق، وقال طياروها إنهم في الطريق إلى دمشق. وفيما كنت أقوم بزيارة لرئيس المجلس السوري، حلقت هذه الطائرات فوق رأسي.

طلبت أن تهبط أي طائرات أخرى في تدمر، بعيداً عن الأعين، كما طلبت الحد من عدد الطائرات العابرة، ورفضت أن يترك الألمان أي قطع غيار! لكن الشيء الآتي الذي طلبته مني حكومة فيشي، هو أن أخلي مدرجات حلب وأتركها في يد الألمان.

لقد وجدت نفسي أمام المعضلة الآتية:

أن أخلي حلب واترك دفاعاتها في يد الألمان، يعني أن نتخلى عن قاعدة للألمان في شمال سورية. إنني لا أريد ذلك، وأفضل الإبقاء على احتلالنا ومنعهم من التمركز، ولو اضطرني الأمر إلى استخدام المدافع المضادة للطائرات. وبهذه الطريقة تجنبت تنفيذ أوامر فيشي بالتخلي للألمان عن قاعدة جوية في شمال سورية.

120 طائرة ألمانية مرت في حلب. لكن كما توقعت، لم يكن لتدخل هذه الطائرات أي فاعلية. وما أن بدأ التدخل الألماني في 15 أيار/مايو، حتى بدأت الخلافات بين الألمان أنفسهم. فقد طالب العسكريون الألمان بقاعدة في سورية. وطالب ران بقنصلية في بيروت يتولى شؤونها بنفسه، غير أنني عارضت ذلك رسمياً، ونجحت في إجهاض هذه الفكرة. إن إقامة قنصلية ألمانية في بيروت، كانت تعني خلع المفوض السامي الفرنسي، لحساب مفوض سام للرايخ. كان لا بد من تجنب هذا التخلي. وأمام رفضي تخلى ران عن فكرته.

للأسف، في هذا الوقت، حقق المسيو غيرار رغبته الجامحة في إنهاء مهمته، تاركاً إياي وجهاً لوجه مع ران. وعلى الرغم من كل اعتراضاتي، سافر في 31 أيار/مايو. وعشية سفره أبرقت إلى دارلان الآتي:

«لقد انتهت المقاومة في العراق. ومن المهم أن نتجنب في سورية الوقوع في خطأ مماثل. إن وجود العناصر الألمانية يشكل ذريعة للهجوم. إنني أطلب إنهاء المهمات القائمة، وجميع الرحلات الألمانية من أي نوع». في اليوم المقبل رد الأميرال دارلان بأنه ليس هناك أي اتفاق بالتعاون العسكري ضد بريطانية وأنه طلب سحب الألمان الذين جاؤوا إلى سورية.

غير أنه في ذلك اليوم وقعت مفاجأة أخرى. فقد وصل الكولونيل الألماني يانغ إلى حلب بزيه العسكري، مدعياً أن هناك اتفاقاً ألمانيةً ـ فرنسياً بالتعاون العسكري ضد الإنكليز. رفضت تماماً أن يأتي إلى بيروت، وطلبت من قائد قوات جانيكين أن يصفي هذه المسألة!

نجح جانيكين في إبعاد يانغ. وفي 6حزيران/يونيو لم تعد في سورية أي طائرة ألمانية، وقد أبلغت القائم بالأعمال الأميركي الذي كان يرعى المصالح البريطانية بهذا الأمر.

هذه، بصورة عامة، سيدي الرئيس، قصة مرور الطائرات الألمانية

يثير الرئيس الأول للمحكمة، مسألة السلاح الذي أرسل إلى العراق، ويقول دنتز إن غيرار وران قدما الطلبات في شأن الأسلحة، وإنه نجح في خفض اللائحة من 30 ألف بندقية إلى 20 ألفا، ومن 800 رشاش إلى 200، ومن 24 مدفعا عيار 75 إلى أربعة.

- الجنرال دنتز: كنت مقتنعاً بصورة تامة، بأن هذه الأسلحة لن تؤدي أي غرض، والواقع أنها ظلت من دون استخدام. وقلت يومها لرئيس أركاني: إن هذه الأسلحة لن تفعل شيئاً سوى أنها ستقع في أيدي الديغوليين والإنكليز. لقد كان إرسال تلك الأسلحة عملاً وهمياً كما ثبت فيما بعد! انطلق القطار الأول في 13 أيار/مايو. وفي 21 منه أصرت القيادة الألمانية على مجموع المدافع من عيار 75و155. وكانت تعليمات حكومة فيشي إنه «من الأفضل أن نرضي الألمان ولو جزئياً، من دون تعريض الأمن في سورية للضعف».

كان مجموع الأسلحة المطلوبة الآن 3 بطاريات مدافع، 155 قصيرة المدى، و354 بندقية رشاشة، و633 شاحنة خفيفة، و54 شاحنة ثقيلة! من كل ذلك نجحت في أن أرسل في 26 و27 أيار/مايو 8 مدافع ،155 قصيرة المدى و354 بندقية رشاشة قديمة جدا! كانت لا تساوي شيئا سواء بالنسبة إلى قوات حسنة التدريب، أو غير مدربة. أما بالنسبة إلى الشاحنات التي أرسلناها فكان مجموعها 32 شاحنة. هذا كل شيء. وقد طلب مني ران أن أرسل مدربين فرنسيين إلى العراق، غير أنني رفضت ذلك بصورة مطلقة، ثم طلب مني أن أدرب جنوداً عراقيين، فرفضت أيضاً.

- الرئيس الأول: هل لك أن تقول لنا لماذا طلبت بديلاً لهذه الأسلحة؟ خوفاً من أي اعتداء؟

- الجنرال دنتز: ما أن أرسلت الشحنة الأولى، حتى طلبت بديلاً لها. وقلت في برقيتي إن الأسلحة مطلوبة تحسباً لهجوم بريطاني. وقد طلبت بصورة خاصة مدافع مضادة للطائرات وأسلحة مدرعة، لقد كان طبيعياً، سيدي الرئيس الأول ـ وقد فعلنا ذلك في إفريقية الشمالية ـ أن نحاول إخراج كل الأسلحة الحديثة من فرنسة. لقد أنقذناها من أيدي الاحتلال الألماني.

- الرئيس الأول: أفهم من كلامك أنك أنقذت السلاح من أجل استخدامه ضد حلفائنا البريطانيين! ثمة ازدواجية هنا. ثمة شيء غير واضح.

- الجنرال دنتز: كان الهدف على أي حال إنقاذ العتاد.

- الرئيس الأول: أيها المتهم، هل لك أن تشرح لنا ظروف «الاعتداء الإنكليزي» وماذا أعددت لمقاومته؟

- الجنرال دنتز: كما قلت سابقاً، وصلت بعثة غيرار إلى حلب في 9 أيار/مايو، وبدءاً من اليوم الآتي تسلم الجنرال ولسون قيادة الجيش البريطاني في القدس، التي وصل إليها أيضاً الجنرال كاترو. في 14 أيار/مايو. أعلن المستر (أنطوني) إيدن في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية منحت جميع السلطات إلى قواتها المسلحة، لكي تقف في وجه أي محاولة ألمانية لاستخدام الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. وأضاف أن حكومته تؤيد تحقيق مطالب الشعبين السوري واللبناني. وفي 8حزيران/يونيو أعلن الجنرال كاترو استقلال سورية ولبنان، وإلى جانبه سفير بريطانية العظمى في القاهرة. صباح ذلك اليوم عبرت القوات الحليفة الحدود الجنوبية لدول المشرق. والأوامر التي كانت لدي تقضي بأن أواجه بالقوة أي هجوم بريطاني.

ماذا يكون موقفي؟ أطيع أم أتمرد؟ إذا لم أطع يعني ذلك إلغاء الهدنة، في وقت كان كل شيء إلى جانب دول المحور (صيف 1941). التمرد يعني تعريض فرنسة لكل

المطامح والشهوات الألمانية، وخصوصاً وضع يدها على إفريقية الشمالية! فالواقع أنه في إمكان دول المحور أن تتمركز في سورية، وأن تقيم مسرحاً جديداً للعمليات. وكان بإمكانها، بكل سهولة، أن تعبر من صقلية إلى تونس، فتحتل بنزرت، وتؤمن بذلك لقواتها في منطقة طرابلس قاعدة وخط مواصلات! وفي العام 1943 تطلب إخراج قوات المحور من تونس، ستة أشهر، و9 كتائب أنغلو ـ سكسونية، و3 كتائب فرنسية!

في خطابه أمام مجلس العموم في 10 حزيران/يونيو عن الهجوم البريطاني على سورية، أعلن تشرشل أن رد الفعل الألماني لا يزال المجهول الأكبر! لكن فرنسة وإفريقية الشمالية هي التي دفعت ثمن ردة الفعل هذه.

لم يكن هناك إذاً سوى حل واحد: الطاعة! إن هذه الأسباب لم تعد قائمة الآن، لكن قواتي كانت تعرفها، وأنتم شهود على ذلك، وقد شرحتها للضباط البريطانيين الذين التقيتهم بعد المعارك. لكن كيف كان يمكن يومها أن نشرح الأمر للشعب الفرنسي المشتعل. إليكم الأسباب:

لقد قيل إنني دافعت عن سورية من أجل هتلر. وهذا ليس صحيحاً. لقد دافعت عن سورية، عن فرنسة، وإفريقية الشمالية ضد احتلال ألماني، وهذا هو سبب تصرفي كما تصرفت.

- الرئيس الأول: اشرح لنا ظروف الهجوم والرد، وتحليق الطائرات، وطلبك في 16 حزيران/يونيو بتدخل الشتوكا.

- الجنرال دنتز: منذ العاشر من حزيران/يونيو، بدأ الخصم بممارسة ضغطه على سواحل بيروت، العاصمة السياسية في المشرق. وكان الأسطول البريطاني يقصف مؤسساتنا الساحلية، ويمنع الحركة على طول الكورنيش الذي يشكل خط المواصلات الوحيد بالنسبة إلينا. وكانت بحريتنا عاجزة في وجهه، وكذلك سلاحنا الجوي. في 11 حزيران/يونيو، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم، كنا قد خسرنا ثلاث كتائب. وقد هوجمت صيدا في 12 حزيران/يونيو، ولم نستطع فك الحصار عنها إلا في 13 منه. ومن أجل الدفاع عن الساحل، كان

لا بد من تفريغ دمشق بصورة خطرة، ومن ثم فإن الدفاع عن سورية سينهار خلال أيام. إن مثل هذا الانهيار السريع يعرضنا لخسارة كل شيء، سياسياً وعسكرياً! وهكذا فكر قادتنا العسكريون الأكثر تعرضاً للقصف البريطاني، أن يطلبوا تدخل الطيران الألماني! كيف حصل ذلك؟

في التاسع من حزيران/يونيو جاءني الجنرال غيورغيس، الجنرال الإيطالي الذي كان على رأس لجنة المراقبة الإيطالية، وعرض عليَّ بصورة تلقائية تدخل طيران المحور، إليكم البرقية التي بعثت بها إلى حكومة فيشي حول هذا الأمر:

«استقبلت هذا الصباح الجنرال غيورغيس، الذي أعلن أنه اقترح على روما تدخل الطيران الإيطالي في فلسطين والأراضي الداخلية البريطانية. وقد أجبته بأن الإيطاليين أحرار في أن يضربوا بريطانية حيثما شاؤوا، بشرط واحد هو عدم استخدام أي أراض في سورية».

إلا أن حكومة فيشي كانت تتعرض لضغط هائل من لجنة الهدنة في فيسبادن والقيادة الألمانية العليا، ولذلك نسبت طلب التدخل الإيطالي إليَّ! لكن أنا لست الرجل الذي يقبل بأن تقاتل القوات الفرنسية وفوق رؤوسها الطيران الألماني، على أنني أدركت أن فيشي تعرض لضغط فيسبادن، بقدر ما كنت أتعرض لضغط ممثلي ألمانية. لقد فهمتها تماماً.

في الحادي عشر من الشهر جاء لمقابلتي الأميرال غوهون، قائد القوات البحرية في المشرق، وقد قرأ عليَّ برقية أرسلها إلى فيشي تقول: «لقد أصررت أمس على القائد العام، بأن يخول فرق الشتوكا استخدام أراضي المشرق، بهدف خفض ضغط قصف السرب البريطاني، الذي يربح يوماً بعد آخر في الشمال، وسوف يكون ذلك الحل الوحيد الناجع في الوضع الحالي. إنني واثق بأن هذا الأجراء الذي كان مرفوضاً قبل الهجوم البريطاني سيلقى قبولاً حسناً من جميع المقاتلين».

زارني الأميرال كروتون في الحادي عشر. وظهر اليوم الآتي بلغت برقيته حكومة فيشي! قاومت إرسال تلك البرقية حتى الظهر، لكنني في الواحدة بعد الظهر أحلت

الأمر إلى فيشي، وأرسلت بدوري برقية في المساء أقول فيها: «إن القصف المستمر من قبل الأسطول واستنزاف القوات السريع جعلاني أغير وجهة نظري.

جاءني من فيشي الرد الآتي:

«سوف نرسل إليك:

أولا: أسراباً مؤهلة لمقاتلة الأسطول.

ثانياً إن مساعدة الشتوكا يجب ألا تطلب ما لم تكن، ليس فقط سريعة ومستمرة، بل أيضاً ضخمة جداً». لكنني في اليوم اللاحق أبرقت مجدداً أرحب بإرسال الأسراب، وأقول إن الاستعانة بالألمان تعني احتلال سورية!

إن تصرفي هو الذي حال دون التدخل الألماني، على الرغم من ضغوطهم الشديدة في بيروت وفيسبادن. وفي غضون ذلك وصلت إلى قوات المشرق برقية تقول: «قاوموا أطول مدة ممكنة، لأسباب تتعلق بالسياسة العامة. وحين تضطرون إلى وقف مقاومتكم دمروا كل العتاد».

بين 13 و16 حزيران/يونيو ساء الوضع كثيراً، سقطت صيدا وأدى سقوطها إلى كشف بيروت. وسقطت جزين ومرجعيون. وأصبحت مداخل بيروت ولبنان مكشوفة كذلك. ومن الجهة الأخرى صارت دمشق مهددة أيضاً، إذ ظهرت على أطرافها وأطراف حلب طوابير مدرعة قادمة من طريق الصحراء.

أبرقت إلى الأميرال دارلان الآتي:

«إنني الآن في وضع غير متوازن، خصوصاً في دمشق، حيث وجدت القوات هذا الصباح متعبة جداً... والخطر الأتي من الصحراء يتأكد... في هذه الحال سوف يكون تدخل الشتوكا حاسماً. إن ران يؤكد أن الزوار سوف يغادرون بالسرعة التي يأتون بها».

رد دارلان بالقول إنه لا بد للحكومة أن تدرس مثل هذا الطلب، وإنه سوف يبعث إلي بالجنرال بريغيه. وبالفعل وصل بريغيه في السابع عشر. وبعد اجتماع بيننا أبرقنا نقول: إن الوضع قد تحسن. فقد قمت بهجمات معاكسة، واستعدت جزين ومرجعيون.

لكن في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو تأكد لي أننا نخوض معركة خاسرة. وكنت في العشرين قد طلبت من المدير السياسي في المفوضية أن يجري اتصالات مع القنصل الأميركي المستر فان انغرت، وسألته: بأي طريقة نستطيع أن نضع حدا لهذه المعركة؟ وفي 21 حزيران/يونيو بعث إلي المستر فان انغرت بمذكرة شروط الحلفاء جاء فيها:

«إن حكومة صاحبة الجلالة، التي لا تريد أن تفرض بأي شكل من الأشكال شروطاً مهينة على الجنرال دنتز، مستعدة تماماً لأن تمنحه كل شرف الحرب، وكذلك للضباط والإداريين الذين لم ينفذوا سوى ما اعتبروه أوامر حكومتهم. ومن ثم فإنه لن يصدر على الجنرال دنتز أو رفاقه أي حكم بالإعدام أو أي حكم آخر».

في 26 حزيران/يونيو أرسلت إلى فيشي القومندان تزه، يرافقه القومندان غودليير، ليعرضا الوضع كما هو بعد سقوط دمشق واستحالة الاستمرار في المعركة! في 29 منه قصف قصر الصنوبر في بيروت، ودمر جزء منه. واقترح بعض الضباط أن أرد بقصف مقر المفوض السامي البريطاني في القدس، فقلت إن القدس لا تقصف. إنها المدينة المقدسة لثلاث ديانات.

في 3 تموز/ يوليو سقطت تدمر بعد حصار دام ستة أيام، فأصبح الفرات مهدداً، والطريق إلى حلب مكشوفة. وأخيراً في 8 تموز/يوليو تلقيت الإذن بالتعاطي مع الحلفاء، فأبلغت القنصل الأميركي فوراً الرغبة في وقف النار، وفي اليوم الآتي حمل إلي المذكرة البريطانية، التي كانت بمثابة عفو شامل ودعوة للقوات الفرنسية للانضمام إلى قوات الجنرال ديغول.

ويفل:
من العلمين إلى سورية إلى النفي

يميل الجنرالات عادة إلى بناء أمجادهم فوق ركام الآخرين! هكذا يقول لنا رونالد لوين! لكن ألفيلد، مارشال اللورد ويفل القائد الأعلى ونائب الملك، بنى شهرته الأساسية على كونه... كاتباً.

طبعاً أدى الرجل دوراً كبيراً في الشرق، لكن بالنسبة إلى مواطنيه، كان ذلك الكاتب الذي وضع «أزهار الآخرين»، بالإضافة إلى «دراسة في العظمة»، وهو أهم المراجع عن حياة معلمه، اللنبي. وحين يقول لنا «ويفل» في معرض الدفاع عن اللنبي: إن الجنرالات يخطئون كثيراً، فعلينا أن نعرف أنه يدافع بصورة غير مباشرة عن نفسه.

لقد ارتكب ويفل أخطاء عسكرية كثيرة.

لكنه، في الوقت نفسه خاض معارك كثيرة. ولعله القائد «الطيف» الوحيد الذي كان باستطاعته أن يكتب:

«خلال الحرب الحالية، وفي أقل من أربع سنوات، من أيلول/سبتمر 1939 إلى حزيران/يونيو 1943. توليت قيادة أربع عشرة حملة في الصحراء الغربية، وفي شمال إفريقية، وفي الصومال البريطاني، وفي أريترية، وفي الصومال الإيطالي، وفي اليونان، وفي كريت، وفي العراق، وفي سورية، وفي إيران، وفي الملايو، وفي جزر الأنديز الهولندية، وفي بورما وفي أراكان».

وكما كان الجنرال غورو ذا ذراع واحدة، فقد تميز ويفل بأنه ذو عين واحدة. ويروي هارولد نيلسون في مذكرات كتبها في أول حزيران/يونيو 1943 قصة لقائه الأول مع ويفل:

«التقيت فجأة برجل ذي عين واحدة. وقد تذكرت فوراً ذلك النهار عندما كنت في الكي دروسية ودخل علينا رجل ضئيل، بدا وكأن له هالة عظيمة. وقلت في نفسي: لا بد أنه عريف في دائرة المراسلين، وقد جاء إلى رئيسه بكمية جديدة من الإحصاءات. لكنني تنبهت فجأة إلى حقيقة الأمر، ووقفت صائحاً: يا إلهي، إنه الماريشال فوش»!

لم يكن ويفل يوحي بهيبة المارشالية لأول وهلة. وكان رجلاً غامضاً منطوياً على الذات في أي حال. وقد تذمر من ذلك المؤرخون العسكريون الذين أرادوا الغور في حياته. ولعل ذلك كان أمراً عفوياً بالنسبة إليه، لم يلحظه، لأنه وهو يدوّن سيرة اللنبي فيما بعد، سوف يتذمر من أن الرجل لم يترك أي أوراق أو مذكرات يمكن أن يعود إليها المؤرخون.

لكن على أي حال هناك أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يقرأها في تاريخ الرجل. خصوصاً - طبعاً - في الشرق، وفي الغرب ظل اسم ويفل مرفوعاً في شوارع ليبية حتى مجيء العقيد معمر القذافي، وإلغاء كل المعالم الأجنبية.

الرجل، إذاً مزيج من الفيلسوف والعسكري، ومزيج من الفشل والنجاح. بل الغرابة أنه نجح في جميع المعارك التي خاضها ضد قوات فيشي والإيطاليين وأخفق في معاركه ضد اليابانيين والألمان. لكن الظروف تتحكم في المعارك وليس الأبطال، كما سيقول في تعليق كتبه «للتايمس» عن معركة «العلمين» ثم يتساءل: ماذا كان حدث لو أن هنيبعل كان لديه 50 فيلاً إضافياً؟ أما كان غير وجه التاريخ؟:

كان ويفل دائماً بحاجة إلى المزيد من الفِيَلَة عندما يتعلق الأمر بالألمان واليابانيين! كذلك كان دائماً بحاجة إلى المزيد من الكتب «التي كانت ذخيرته الأخرى». فقد نظر إلى كل أمر من زاوية تاريخية ما، وإلى كل معركة من خلال القادة الذين سبقوه إليها. هكذا فعل اللنبي من قبل، غير أن ويفل كان مثيراً للجدل في الأميرالية، في حين أن اللنبي حقق للإنكليز من الانتصارات ما جعله معفى من تحاليل النقاد العسكريين في لندن.

وعندما انطلق ويفل في مهمته بصفته قائداً أعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط ـ تموز/يوليو 1939. كتب جون كونيل، الرجل الذي سوف يؤرخ حياته بكل حماسة فيما بعد:

«وهكذا صعد السلم المجرد، العظيم، سلم الواجب، من دون تحية، ولكن أيضاً من دون غمّ».

وبين الذين لم يقفوا لأداء التحية له، كان ونستون تشرشل بالذات، السياسي الذي لن يمنح ويفل ثقته، والذي سوف ينقله بعد ذلك من مصر إلى الهند.

غير أن العصر كان قد تغير بالنسبة إلى ويفل، وليس الظروف وحدها. وهو لن يستطيع أن يكون اللنبي الآخر أمام الأمبرالية، لأن 1941 ليست 1914 على أي حال، لقد كان هو نتاج ما بين الحربين. وكان، بصفته عسكرياً وسياسياً معاً يعرف أن الحرب الأولى تركت أشياء كثيرة من دون حسم بالنسبة إلى أوروبة. وقد كتب غير مرة أن الثلاثينيات كانت فترة خنوع شديد بالنسبة إلى إنكلترة، وقال بعد رحلة تشامبرلين الشهيرة إلى ميونيخ: «كيف نستطيع أن نرفع رؤوسنا ثانية بعد اليوم».

غير أن الرجل الذي كان يرتاح إلى الورقة والقلم، كان يتعثر في حياته العسكرية. ولطالما لجأ إلى القلم لا إلى القتال للدفاع عن النفس، وعندما انتقد تشرشل انسحابه من الصومال بعدد قليل من الضحايا، كتب إليه يقول: «إن فاتورة الجزّارين إذا كانت كبيرة لا تشكل دليلاً على الحنكة». ويقال إن هذه البرقية أغضبت تشرشل أكثر من مرة في حياته العامة.

كان تشرشل بحاجة إلى جنرالات يستطيعون «أداء المهمة». وكما فعل أبراهام لنكولن في الحرب الأهلية الأميركية، عندما راح يطرح الجنرال بعد الآخر، هكذا أبعد ويفل ثم أوكينلك إلى أن أعطاه مونتغمري النصر الذي يريد. ففي غياب أو استحالة الانتصار على ألمانية في قلب المعركة، كانت لندن بحاجة إلى انتصار في «الضواحي». لكن ويفل أخفق في قراءة ما يدور في غرفة العمليات، أو في ذهن تشرشل، ولذا لم يكن هناك حوار حقيقي بين الرجلين.

أيضاً ما يهمنا في سيرة ويفل هو دوره في الشرق الأوسط، أو أبرز أدواره في المنطقة، وهو دور سوف يمتد، من ليبية في المغرب إلى مصر وسورية ولبنان. لقد جاء الرجل إلى العالم العربي، في الوقت الذي كان الثعلب الألماني أروين روميل يصل إلى

طرابلس مع الطلائع الأولى من «الفيلق الإفريقي» أو (KORPS AFRIKA) كما سماه الألمان.

وكانت أوروبة، سواء من «الحلفاء» أو من «المحور»، عين على أرضها، وعين على الشرق. أو بالأحرى، «الشرق الأوسط»، الآن ومع حلول الحرب الكونية الثانية. وكانت لندن تخشى أن يدفع هتلر الإيطاليين في حملة على مصر، قبل أن يتم حسم «المعركة من أجل بريطانية».

وبدأ الأعداء الأوروبيون في عمليات التمويه. وفي حين ظن ويفل أن الألمان سيفجرون الحملة عبر البلقان، كانت الدوائر الحربية في لندن تأخذ على محمل الجدّ الإشاعات القائلة إن هتلر ينوي اقتحام تونس. وعلى الرغم من كل التنقلات الإيطالية والألمانية إلى ليبية، وانتقال فيالق كاملة من نابولي إلى طرابلس، ظل الإنكليز يعتقدون أن المسألة غير جدية. لكن هذه القناعة تغيرت تماماً في 17 شباط/فبراير 1941. عندما بدأ رومل بالتحرك شرقاً من طرابلس. عندها أيقنت لندن أن هتلر يريد الوصول إلى مصر، من «طرابلس الغرب لا من مصر». وقبل أن ينتهي ذلك الشهر وقع اصطدام بالمدرعات في منطقة «العجيلة»، فلم يبق مكان لأي شكوك.

في الشهر الآتي سوف يتأكد البريطانيون أيضاً، من أن رومل هو الذي سيتولى قيادة الحملة. لكن القيادة البريطانية في القاهرة ولندن معاً، كانت لا تزال مأخوذة بالانفجار الوشيك في البلقان، وبالتزامها تجاه الحكومة اليونانية، ومن ثم فإن أي خطر في ليبية بدا ثانوياً، خصوصاً أن تشرشل كان يحمل تطمينات من ويفل بأن جبهة الصحراء بألف خير!

غير أنه في الوقت الذي بدأ رومل بالتقدم، متخطياً خليج سرت والعجيلة، أثار المخاوف في لندن، وحمل ويفل على الاعتراف في 23 آذار/مارس بقوله:

«يجب أن أعترف بأنني ارتكبت مخاطرة كبرى في برقة بعد احتلال بنغازي، من أجل أن أوفر الحد الأقصى من الدعم لليونان، وكان تقديري آنذلك أن الإيطاليين في طرابلس ليسوا بذي بال، وأن الألمان لن يخاطروا على الأرجح بإرسال عدد كبير

من القوات المدرعة إلى إفريقية بسبب عدم كفاية البحرية الإيطالية. ومن هنا فإنني وضعت الترتيبات لترك قوة مدرعة صغيرة، وفرقة أوسترالية مدربة جزئياً، في برقة».

غير أن الاعتراف بالخطأ، على نبله، لم يكن ليلغيه. إذ بين كل التقديرات التي ذكرها، كان هناك واحد صحيح فقط، وهو أنه يمكن تجاهل الجيش الإيطالي في شمال إفريقية. أما بالنسبة إلى البحرية الإيطالية، فقد أظهرت السجلات أنه بين شباط/فبراير وآذار/مارس 1941 نقلت من إيطالية إلى ليبية نحو 220 ألف طن من بضائع «المحور» لم يعترض منها في البحر سوى 20 ألفاً. وقد أغرق الإنكليز سفينة هنا، وأعطبوا أخرى هناك، لكن بناء «الفيلق الإفريقي» استمر قائماً، لذلك كان تقليل ويفل من أهمية الإيطاليين، عملاً آخر لصالح الثعلب الألماني، الذي سبقته شهرته إلى كل مكان. كما أن ويفل نفسه كان من دون ضباط أكفاء وقد استدعى يومها من فلسطين فيليب نيامي، الذي وصفه العسكريون بأنه «جنرال عادي جيد». أما الألمان فإنهم كانوا كلما فقدوا أحد ضباط الأركان، استبدلوه بمن هو أكفأ منه.

أكثر من ذلك فإن ويفل لم يتفقد أرض الجبهة المحتملة » جنوب بنغازي. وعندما ذهب أخيراً لتفقد النواقص في الجبهة في منتصف آذار/مارس، عاد منها «قلقاً وحزيناً» كما كتب فيما بعد، إذ اكتشف أن 25 دبابة من أصل 52 كانت قيد الإصلاح، أما الباقي منها فكان يتساقط فوق الرمال، وبدلاً من أن يعاقب ويفل ضباطه على الحالة المزرية، تركهم في مناصبهم. وبعد ذلك بأسابيع سوف يعطيه رومل درساً في معاقبة المهملين، بالطريقة التي عاقب بها كبير ضباطه، الجنرال شرايك.

كانت مخاوف القيادة البريطانية في لندن تزداد على جبهتين: الثقة الضعيفة بويفل، وتزايد أعداد الوحدات الألمانية. وفي 28 شباط/فبراير استطاع مركز «بليتشلي» أن يحل رمز شيفرة سلاح الطيران الألماني في المتوسط، وراح يتابعها باستمرار. وهكذا فقد تأكدت لندن في أوائل آذار/مارس من عدد العناصر الألمانية، الجوية والبرية، في منطقة طرابلس، ومن مدى الحضور «الروملي» هناك.

عادت وزارة الحرب تسأل ويفل: هل جبهة الصحراء آمنة حقاً؟

وقد بعث الرجل في 2 آذار/مارس بالرد المطمئن الآتي:

«من طرابلس إلى العجيلة هناك 471 ميلاً، ومن بنغازي نحو 646 ميلاً. وهناك طريق واحدة، والماء غير كاف على مسافة 419 ميلاً من أصل المسافة كلها. إن هذه العوامل، بالإضافة إلى الافتقار إلى وسائل النقل، تحد من خطر العدد حالياً، إن باستطاعته على الأرجح أن يحافظ على فرقة مشاة وفصيل مدرع على الطريق الساحلية مدة ثلاثة أسابيع، وربما استطاع في الوقت نفسه استخدام فصيل مدرع آخر في الصحراء، عبر هون ومردة، ضد قواتنا».

كان ويفل مقتنعاً بأن الجنرالات الألمان يفكرون بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الجنرالات الإنكليز، ومن هنا جاءت قناعته الأخرى بأن عدوه لن يقوم بأي هجوم مهم قبل حلول أيار/مايو. لكن بعدها كانت رحلته التفقدية المأساوية. وقد ثبت أن أوضاع قوات الجنرال نيامي «كانت مجنونة». والحقيقة أن رومل لم يفاجئ ويفل وحده، بل فاجأ برلين أيضاً، وعندما طلب من قيادته 15 دبابة «بانزر» إضافية، رفض طلبه، وقيل له أن يؤجل الحملة حتى منتصف أيار/مايو، لكن في 4 نيسان/إبريل كان رومل قد أصبح في بنغازي، وفي 6 منه في درنه، وفي 10 في طبرق، وفي نهاية ذلك الشهر كان جالساً على الحدود المصرية.

وحده هتلر، في هذه المرحلة، كان يفهم ديناميكية رومل، «لقد اخترق رومل لأنه يعرف كيف يتخاطب روحياً مع قواته. وإن هذا لأمر ضروري بالنسبة إلى قوة يتعين عليها القتال في ظروف صعبة، مثل القطب الشمالي أو شمال إفريقية».

في الوقت الذي كان «الفيلق الإفريقي» يهدد بنغازي، كان ويفل قد طار مرة أخرى إلى الجبهة. وإذ تأكد مجدداً من رداءة نيامي ناشده جون هاردينغ (جنرال آخر من جنرالات الشرق) أن يعزله، وبالفعل استدعى الجنرال أوكونور للعمل معه، غير أن أوكونور نصح ويفل بالإبقاء على نيامي في هيئة الأركان، وهو قرار سوف يندم عليه كثيراً فيما بعد.

ذلك أن مضاعفات مأساوية قد ترتبت عليه. ففي السادس من نيسان/إبريل كانت تلك الوحدات التي لم تدمر، أو تلك التي لم تقع في الأسر، تهيم على وجهها هاربة في سهول «الجبل الأخضر» كالثيران الفالتة، وكانت بنغازي قد سقطت. وليلة 6 نيسان/إبريل كان الجنرالات نيامي وأوكونور وكومب يتجهون في سيارة واحدة إلى درنه. وكان أوكونور ملاحاً قديراً من ملاحي الصحراء، غير أن السيارة كانت سيارة نيامي الذي كان يقودها أيضاً. وراح أوكونور يحذر السائق الجاهل من أنهم ضلوا الطريق. ولم تمض مدة قصيرة حتى وجد الثلاثة أنفسهم أمام جنود ألمان يطلبون منهم أن يضعوا أيديهم فوق رؤوسهم. لقد قدم نيامي إلى رومل على طبق من ذهب، اثنين من أفضل جنرالات «الصحراء الغربية». ومنذ تلك اللحظة بدأ أوكونور في محاولاته المتكررة للفرار، إلى أن نجح في ذلك بعد سنوات.

في هذه الأثناء تحرك البريغادير جون هاردينغ. لقد كان أول من شعر بأن الجنرالات قد وقعوا في الأسر. وعمد فوراً إلى تدعيم دفاعات طبرق، ثم أرسل إلى ويفل يطالبه بالذهاب إلى هناك، ووصل ويفل إلى طبرق في 8 نيسان/إبريل، وقد كتب جون كونيل يصف ذلك الموقف:

«... وكان في استقباله في المطار الجنرال مورشد، والكولونيل لويد وآخرون، كانوا متعبين، منهكين، غير حليقي الذقون، وكانوا يعرفون أن رائحة الصحراء والتراجع والهزيمة تفوح منهم. وقد أعاد إليهم حضور ويفل الثقة بالنفس، كما أعاد الثقة إلى نفسه أيضاً. ولقد أبلغهم قبل أي شيء أنه يجب المحافظة على طبرق».

من أجل ذلك، أي من أجل المحافظة على طبرق، كان لا بد لويفل أن يستنفر في ذاته كل موهبة ومقدرة يملكها. لكن قبل أي شيء كان لا بد من أن يقرر الصمود. الصمود حتى الرجل الأخير! ذلك هو الحل الوحيد أمام تلك الصورة المحزنة: الجيش في تراجع، القادة مفقودون، الآليات القليلة متروكة في الرمال.

كانت طبرق بالغة الأهمية بالنسبة إلى الأوروبيين المتقاتلين في الصحراء، وكان البريطانيون والألمان يعرفون ذلك تمام المعرفة. لكن الذي لم يكن يعرفه ويفل هو ما إذا كان ممكناً الدفاع عن هذه الجبهة العريضة، بمثل هذه الحامية الصغيرة،

ولم يكن أيضاً يعرف ما إذا كانت مقدرة «الفيلق الإفريقي» في حرب المحاصرة، مثل مقدرته في المعارك المتحركة، غير أنه في مثل هذه الحالات، التجربة وحدها تعطي الجواب الأكيد.

وسوف تثبت التجربة، إذاً، أن حامية طبرق حققت على الأقل النجاح في إلهاء رومل. وكان لدى تشرشل من أسباب الفرح أنه أبرق إلى ويفل في العاشر من نيسان/إبريل قائلاً: «إننا جميعاً نتبنى بكل قلب، قرارك بالتمسك بطبرق، وسوف نفعل كل ما في وسعنا لأن نوصل إليك المساعدة». أما رومل فقد نظر إلى المسألة من زاوية مختلفة: «لقد كان ويفل ينوي بوضوح المحافظة على طبرق، وتزويد دفاعاتها بحراً، معتقداً أن هجماتنا الأولى على الحامية لن تنجح». وسوف يقول رومل فيما بعد إنه من بين جميع القواد البريطانيين الذين قاتلهم، «كان ويفل الوحيد الذي أظهر شيئاً من العبقرية».

بالفعل كان ويفل على حق، إذ لا الهجوم الأول على طبرق نجح، ولا الهجمات التالية، لطالما كان ويفل في مركز القيادة البريطانية، وحاول رومل طوال شهر نيسان/إبريل اقتحام البلدة يوماً بعد آخر، مستخدماً كل سلاح متوافر لديه، لكن من دون جدوى. وقد دوّن في مذكراته بكل يأس أنه في مثل هذه الحالات من القتال، كان الإنكليز والأوستراليون أكثر مقدرة من رجاله.

لقد حقق ويفل النجاح الذي أراد، واستطاع بذلك أن يحمي تلك «القاعدة» البريطانية المهمة، أي قناة السويس، وأن يصد الخطر الداهم أيضاً عن الإسكندرية، التي كانت الميناء الأول للأسطول البريطاني.

بعد ذلك سوف يلحق ويفل الكارثة بالبريطانيين في معركة كريت، تلك الجزيرة التي كان يقول تشرشل إنه يجب «أن نصل إليها أولاً، يجب ألا يأخذها الإيطاليون». كان كل شيء متداخلاً بعضه ببعض. اليونان كانت تعني مصر. ومصر كانت تعني سورية ولبنان، وسورية كانت تعني المشرق، والمشرق كان يعني ذلك السؤال الكبير: أين سيضرب هتلر؟ في سورية؟ في اليونان؟ في البلقان؟

هتلر كان – بالطبع – يستعد للجبهة الروسية!

كتب تشرشل في مذكراته فيما بعد، عن «الحالة الرهيبة الطارئة التي حاصرت الجنرال ويفل من كل جانب مرة واحدة». والحقيقة أنه خلال نيسان/إبريل، وأيار/مايو 1941 ـ وهي الحقبة الأكثر حرجاً من الحرب على مسرح الشرق الأوسط كله ـ كان تشرشل يظهر صلابة وقساوة، موازنة لصلابة هتلر أو تتخطاه، وفي الأسابيع الثمانية التي سقطت خلالها اليونان ويوغوسلافية وكريت، أرغم ويفل أيضاً على القيام بعمليات إلهائية في سورية والعراق. ويقول الكاتب رونالد لوين: إن ويفل قام بهذه العمليات ضد إرادته غير أن الجنرال إدوارد سبيرس أشهر المفوضين السامين في لبنان، كتب في مذكراته عن تلك المرحلة الآتي:

«لم تكن الصعوبات التي يواجهها القائد الأعلى (ويفل) لتتضاءل. لكن في الوقت نفسه كانت الأحداث تثبت أن موقفه من الفرنسيين في المشرق كان موقفاً خاطئاً من الأساس».

«في الرابع من ذلك الشهر التقينا ـ الجنرال كاترو وأنا ـ بالقائد الأعلى. كان لقاءً مغماً حقاً، وقد ألقينا جانباً على الفور خطة ديغول، لأن الزمن تخطاها. غير أنني شعرت بالأسى أيضاً، وأنا أسمع ويفل يقول إنه لم يرد في أي وقت التدخل في العراق، وإن التدخل في سورية يعني التشتت ومن ثم الهزيمة. لكن في اليوم الآتي (5 أيار/مايو) عرضنا المسألة في اجتماع. وقال إنه إذا هاجمنا الألمان براً أو جواً، فإنه سيرد عليهم بكل القوات الموجودة تحت تصرفه».

منذ اللحظة الأولى اعتبر ويفل أن مجيئه إلى سورية والعراق، سوف يكون وبالاً عليه. وها هي ثورة رشيد عالي الكيلاني تقوم في العراق، فيبرق تشرشل إلى ويفل على عجل: أعدّ فرقة عسكرية خاصة للتدخل. غير أن ويفل يرد في خوف: الأمر مستحيل، حاولوا البحث عن حل سياسي! إلا أن مستشاري تشرشل انضموا إليه الآن في الاقتناع بأن سورية، بسبب وضعها الاستراتيجي، سوف تكون نقطة انفجار. لكن على الرغم من ذلك كان ويفل مقتنعاً بأن «قوات فرنسة الحرة» التي يطالبه تشرشل بدفعها إلى المعركة، سوف تستقبل في سورية على أنها عدو وليس صديقا. وكان على حق.

وقد أبرق إلى حكومته في 17 أيار/مايو 1941 يقول: «إني أومن بقوة أن قوات فرنسة الحرة، سوف تكون ضعيفة جداً من دون دعم بريطاني، بل إنها ربما زادت في تعقيد الأمور. إنني أقترح أن نقوم نحن بالهجوم على أن يتبعنا الفرنسيون الأحرار، إذا كان الهجوم ناجحاً».

وطار صواب تشرشل عندما أشار ويفل في تلك البرقية ـ عن غير قصد إطلاقاً ـ إلى إحدى الهزائم في حرب البوير، واستدعى وزير الحربية على الفور، وقال له إنه قرر أن ينقل ويفل إلى الهند، وأن يضع في مقر القيادة في القاهرة الجنرال أوكينلك. وأضاف تشرشل - بالخبث الذي عرف عنه -: «إنه سوف يستمتع هناك في فيء المعابد البوذية»! وعلى أي حال فهو لم يكن يريده أن يأتي إلى لندن «كي يمضي الوقت في غرفته في النادي». وبالفعل أبرق ويفل إلى وزير الحربية، يتوسل إليه للسماح له بالذهاب إلى لندن لرؤية ابنته، غير أن تشرشل الذي كان لؤمه يغطي عظمته، أراد أن يتجنب أي أسئلة يمكن أن تطرح، أو أي إشاعات يمكن أن يثيرها مجيء ويفل إلى لندن، فأرسله مباشرة إلى الهند.

لكن عملية النقل كان لا بد أن تتأخر، أيضاً بسبب تلاحق الأحداث، فقد أبرقت غرفة الحرب في لندن إلى ويفل على وجه السرعة: «ليس من حل أمامنا سوى أن تبتدع أكبر قوة ممكنة ـ من دون أن يؤثر ذلك في أمن الصحراء الغربية ـ وأن تكون مستعداً للانتقال إلى سورية في أقرب فرصة ممكنة». ودار نقاش حاد آخر حول دور القوات الفرنسية. وأخيراً أبرق ويفل إلى رؤسائه باستسلام في 21 أيار/مايو قائلاً: «إما أن تثقوا بتقديري لهذه المسألة، أو أن تأمروا بإعفائي من القيادة».

غير أن تشرشل لم يغتنم الفرصة ويمد يده لالتقاط رأس ويفل من الطبق الفضي. لقد كان يعرف بحدسه أن ذلك سوف يثير ضجة سياسية هائلة كان هو في غنى عنها. غير أنه رد على ويفل في اليوم نفسه ببرقية تقطر لؤماً وسخرية:

«إننا نرى أنه إذا كان باستطاعة الألمان أن يأخذوا سورية والعراق بقوات لا تذكر، وعن الطريق السياح والثورات المحلية، فيجب ألا نتوانى عن ركوب مخاطر عسكرية صغيرة نحن أيضاً».

وفي الوقت نفسه كان وزير الحربية يكتب إلى الجنرال أوكينلك مذكرة سرية يقول فيها: «أريد أن أخبرك أن رئيس الوزراء قد فقد الثقة بويفل، هذا إذا كانت له أي ثقة به على الإطلاق. وإنني مقتنع بأنه في الحرب إما أن تكون لك ثقة في جنرالك، أو أن تطرده. وبما أن الأمر كذلك فإننا قد نواجه قريباً بنقل ويفل من الشرق الأوسط، وربما حصل ذلك قبل أن تصلك هذه الرسالة، وعندما يتم الأمر، عليك أن تكون مستعداً لخلافته».

على أي حال مضى ويفل في تنفيذ الأوامر المعطاة إليه، وأخذ في جمع قوة ضاربة من هنا وهناك، إضافة إلى مقاتلي «فرنسة الحرة». وعندما بدأ في التقدم نحو سورية في 8 حزيران/يونيو، بدا أن كل ما توقعه قد حدث، وأن ما توقعته لندن كان خاطئاً، ذلك أن قوات «فيشي» لم تسقط بسرعة، بل أخذت تحارب القوات الديغولية (الحرة) بضراوة، ولم يوقع الجنرال دنز، قائد قوات فيشي الهدنة، إلا في 14 تموز/يوليو.

لكن، في تلك الأثناء. كان ويفل في طريقه إلى ظلال المعابد البوذية في الهند.

الماريشال كلود أوكينلك

الهزائم انتصارات

لا يمكن الكتابة عن دور أرشيبالد ويفل في الشرق الأوسط والمغرب العربي، من دون الحديث عن رفيقه وصديقه الجنرال أوكينلك. فالرجل لم يخلفه قائداً أعلى للقوات البريطانية فحسب، بل كان إلى جانبه في مرحلة كبرى من مراحل ويفل العصيبة، عسكرياً وسياسياً، بل إن تلك المرحلة قد تبدو أقل تعقيداً من خلال سيرة أوكينلك، الذي كان بدوره أقل تعقيداً من ويفل، مع أنه سوف يلقى المصير نفسه على يد ونستون تشرشل فيما بعد، وسوف يكون بدوره مثيراً للجدل: هل كان بطلاً أم فاشلاً؟

غير أن أنصار أوكينلك اختصروا الجواب: إنه الرجل الذي ربح المعركة الأولى في «العلمين»، ولولا تلك «المعركة الأولى لما كانت هناك معركة ثانية».

ولأنه حرم من لقب «بطل العلمين» الذي سوف يعطى لمونتغمري فيما بعد، فقد أعطاه أحد مؤرخيه، روجر باركنسون، لقب «قاهر العلمين»، فهو في نهاية الأمر قائد «الجيش الثامن»، الذي أوقف انهزام القوات الإنكليزية وتراجعها في وجه رومل، وحوّل التراجع إلى هجوم كاد يهزم ثعلب الصحراء وفيلقه الإفريقي.

في وائل صيف 1942 كان شبح الهزيمة يخيم فوق بريطانية أكثر من أي وقت مضى. وتهديد الجزيرة هذه المرة لم يكن آتياً عبر المانش، وإنما عبر الصحراء «في شمال إفريقية». ففي تموز/يوليو 1942 كانت قوات رومل قد وصلت إلى مسافة 115 ميلاً من قناة السويس و70 ميلاً من الإسكندرية. وبدا وكأن شيئاً لن يقف دون دول «المحور» واحتلال مصر. فإذا سقطت القناة فإن ذلك سيعني تلقائياً وصول الألمان إلى العراق وسورية وإيران. وعندها «يستطيع العدو أن يندفع شمالاً نحو روميا، وشرقاً نحو الهند. وسوف يخسر الحلفاء حقول النفط، وتصبح الهند معزولة. وعندها يخسر الحلفاء كل شيء، ويمتد الساعد الألماني لمصافحة اليد اليابانية».

الصراع حول الشرق، حول المشرق، حول العراق وسورية ومصر ولبنان. حول ليبية وتونس والمغرب. حول الجزائر، إنما هو صراع حول العالم أجمع. صراع حتى الصين وربما على الصين أيضاً. وفي الحروب بدا واضحاً كم هو الشرق نقطة ارتكازية في قلب الكرة: تلك الكرة التي تتصدر صورها جدران المدارس، وقد أصبح بعض حلفاء الأمس أعداء اليوم والعكس.

لقد جاء أوكينلك إلى الشرق في الحرب الأولى، وهو بعد برتبة «كابتن». وعرف يومها من قائده ومعلمه اللنبي مدى أهمية المنطقة التي تركها وهو برتبة «ميجور». غير أنه الآن دخل على إستراتيجيات الصراع عنصر جديد: النفط!

كذلك كان هناك مقاتلون جدد أمام الجنرال أوكينلك: ها هم الأميركيون قادمون، وهم حتى الآن يلقون بثقلهم في دفاعات الحلفاء. وفي لندن كان وضع تشرشل السياسي شديد الاهتزاز: هزيمة أخرى ويذهب إلى بيته مكللاً بالعار، بدلاً من الغار: هل لاحظت فرق النقطة الواحدة فوق حرف «العين»؟!

كل شيء كان متوقفاً آنذاك على رجل واحد: كلود أوكينلك. وفي صباح 25 حزيران/ يونيو 1942 يغادر القائد الأعلى (الجديد) للقوات البريطانية مقره في القاهرة إلى الجبهة لكي يتولى بنفسه قيادة الجيش الثامن المتراجع في الصحراء. وفي قاموس العسكر ليس من مهمة أكثر صعوبة من السيطرة على جيش متراجع.

وقد نجح. ليس فقط في وقف التراجع، بل في تجريد رومل من المبادرة، وفي إرغامه على العودة إلى مواقع لن يخرج منها فيما بعد. لكن بعد شهرين من ذلك الانتصار كان أوكينلك عاطلاً عن العمل، وبعد سبعة أشهر كانت اللعنة تحل عليه، وتشرشل يقول: «لقد فقدنا الثقة في أوكينلك في الميدان».

وسوف تكشف الوثائق الرسمية فيما بعد أن تشرشل بنى قراره هذا على تقارير وضعها ضابط أقل رتبة يدعى برنارد مونتغمري، وهو الذي سوف يسرق ثمار الانتصارات الحقيقية في العلمين. وكانت تلك التقارير كاذبة طبعاً.

لقد كانت هناك اختلافات كبيرة في الشخصية بين الاثنين: كان أوكينلك ودوداً لطيفاً، وكان متواضعاً. مونتغمري كان العكس.

وصل كلود أوكينلك إلى القاهرة في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير 1941، قادماً من بريطانية بطريق متعرجة أخذته إلى إفريقية الغربية، وكانت في استقباله في «القيادة العامة للشرق الأوسط» مشاعر مختلفة، هي خليط من التعب والارتياح والقلق على المستقبل. وكان سلفه الجنرال ويفل، قد امتص الحملة الإيطالية في الخريف السابق، وتراجع إلى مواقع معدة في مرسى مطروح. وبدأت الاستعدادات لهجوم بريطاني مضاد، كان تشرشل يلح على التعجيل به. وقد واجه «قائد الشرق الأوسط» ضغوطاً من جانب آخر أيضاً. ففي 28 تشرين الأول/أكتوبر أقدمت إيطالية على اقتحام ألبانية بعدما رفضت اليونان التحذير النهائي الذي وُجّه إليها. وهكذا فإن التعزيزات التي كان مقرراً أن تصل إلى قوات ويفل، أخذت تتحول إلى الحليف اليوناني الخاسر.

وفي هذا الوقت شن ويفل حملته المعروفة باسم «البوصلة» في 9 كانون الأول/ديسمبر. وخلال ثلاثة أيام كان الإنكليز وحلفاؤهم قد أسروا 40 ألفاً من الإيطاليين الشجعان!! واستولوا على 237 مدفعاً، و 73 دبابة. وفي نهاية ذلك الشهر حاصر الإنكليز ميناء «بردية» الإستراتيجي وأخذ ويفل وجنراله ريتشارد أوكونور يستعدان للتقدم نحو ليبية. غير أنه في هذا الوقت وصلت إلى لندن تقارير أن الألمان يستعدون لدعم الحملة الإيطالية المتراجعة في ألبانية.

وبحث أوكينلك الوضع مع ويفل. وقال الثاني إنه يعتقد أن الحشود الألمانية على حدود يوغوسلافية واليونان قد تكون خدمة هدفها استدراج القوات البريطانية من شمال إفريقية. وهكذا قرر أوكينلك أن يتفقد الصحراء مرة أخرى. وفي 8 كانون الثاني/يناير توجه إلى الإسكندرية، ومنها إلى مطار «العامرية»، حيث التقى قائد القاعدة آرثر تيدر، الذي سوف يصبح بعد ذلك من أقرب معاونيه، وقد وصف تيدر ذلك اللقاء:

«كانت الريح تعصف قوية من الجنوب الغربي، والرمال تتكاثف بسرعة. وقد وجدت هناك عسكريين اثنين: الأول يعتمر خوذة نحاسية، والثاني برتبة كولونيل... وبعد قليل عرفت أن الخوذة النحاسية هي خوذة أوكينلك: لحية أنيقة، وطبع جيد، وتواضع».

يومها كان أوكينلك في طريقه إلى نيودلهي، التي وصلها في الأسبوع الثاني من كانون الثاني/يناير. لكن الوضع في الشرق الأوسط كان يزداد سوءاً. وفي 13 كانون الثاني اضطر ويفل أن يطير إلى أثينة، لكي يرى أي نوع من المساعدات تريد اليونان، لكنه اكتشف أن أثينا لا تقبل المساعدة. وفي لندن كانت اللجنة الدفاعية العليا تعود فتعطي الأولوية لجبهة الصحراء. وقد سقطت طبرق في 22 كانون الثاني/يناير، وبنغازي في 6 شباط/فبراير، «وهكذا اكتمل سقوط برقة». وهكذا أصبح الطريق معبداً مرة أخرى «أمام طرد الإيطاليين» من شمال إفريقية، لكن فكرة مساعدة اليونان عادت إلى الأولوية مجدداً، وطار أنطوني أيدن، الذي أصبح الآن وزيراً للخارجية، إلى الشرق الأوسط مع الجنرال جون ديل للبحث في إرسال قوة من مصر إلى اليونان. وفي اليوم الثاني وصل أروين رومل إلى طرابلس، وأمر الإيطاليين باستئناف الهجوم.

سوف تكون الهند مصدراً مهماً للقوى البشرية إلى الشرق الأوسط. وعلى أوكينلك أن يتولى الأمر، وبالإضافة إلى ذلك كانت مهمته حماية الهند نفسها، التي سوف تزود البريطانيين بنحو 100 ألف جندي. وفي هذا الوقت كان إيدن قد قرر خلال محادثاته في أثينا إرسال 10 آلاف جندي إلى اليونان، وهو أمر اعتبره أوكينلك مضعفاً لجبهة الصحراء. كذلك كان قلقاً على الوضع في العراق، مؤمناً أن «سلامة الهند من سلامة العراق. وأن سقوط العراق في أيدي المحور يعني سقوط حقول النفط».

وكان رشيد عالي الكيلاني يتطلع إلى الألمان في دعم ثورته العربية تجاه البريطانيين، الذين كانت لهم قاعدة جوية في الحبانية، لكن لم تكن لهم قوات ميدانية في العراق.

واستقال رشيد عالي الكيلاني في نهاية كانون الثاني/يناير، ليخلفه طه باشا الهاشمي، وكان هو أيضاً معادياً للإنكليز. وفي حين نظرت لندن إلى الأمر ببساطة، رأى فيه أوكينلك «مسألة خطيرة» ضد مصالح بريطانية. وعاد إلى درس خطط

سابقة لاحتلال البصرة من «أجل حماية آبار النفط». كما كتب إلى ويفل يقول «إن الوقت يدهمنا، والوضع في العراق لا يبدو مريحاً على الإطلاق».

وكان أوكينلك يتذكر جيداً من الحرب الأولى تلك الفوضى التي نشأت في حملة العراق من جراء تضارب الأوامر بين الهند ولندن والبصرة. ولذا كتب في 21 شباط /فبراير إلى الجنرال «ويفل» معاً في محاولة لتوضيح مسألة القيادة: «أعتقد أنه من الأضمن لنا أن يوكل أمر احتلال البصرة، بأي ثمن، لهذه القيادة (أي الهند)، وإذا تبين لاحقاً أنه من الضروري وضع تلك القوة تحت قيادة الشرق الأوسط، فلا مانع لدي، شرط أن يكون بإمكاني إعطاء رأيي في الخطط الموضوعة»... ووافق ويفل على الأمر.

لكن ويفل كان أيضاً عرضة لكل أنواع الضغوط. ففي اليوم الأخير من شباط/ فبراير، تقدمت تشكيلات ألمانية صغيرة نحو بلغاريا من رومانية. وبعد ذلك بيومين تدفقت العناصر الرئيسة في الجيش الألماني الثاني عشر على بلغاريا، وتمركزت حول الحدود اليونانية واليوغوسلافية. وفي الأسبوع الأول من آذار/مارس نزلت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى في اليونان، وتحركت شمالاً لدعم الحلفاء.

وفجأة انفجرت البراكين التي كانت تتحرك في العراق واليونان والصحراء. وفي 31 آذار/مارس اندفع رومل نحو «العجيلية». وفي اليوم نفسه فرَّ الوصي على العرش في العراق إلى قاعدة الحبانية. وفي 3 نيسان/أبريل كان رومل يتقدم نحو بنغازي، فيما تتراجع القوات البريطانية مشتتة. وفي بغداد استولى رشيد عالي على السلطة. وبعد ذلك بثلاثة أيام تم أسر الجنرالين نيامي وأوكونور، وفي ذلك اليوم أيضاً (6 نيسان/أبريل) دخل الألمان إلى اليونان ويوغوسلافية.

بُلّغت حكومة تشرشل بالوضع الكارثي في اليونان في 7 نيسان/أبريل، كذلك بُلّغت أن «الوضع في العراق قد تدهور» وأن «معركة كبرى قد تكون ضرورية قبل اتضاح الأمور».

وكان أوكينلك مستعداً لإرسال قواته من الهند. وقد التقت أفكاره مع تفكير تشرشل الذي طرب للأمر، وقرر مكافأته في المستقبل القريب. وفي 10 نيسان/أبريل

قبلت الحكومة البريطانية عرض أوكينلك «مع الشكر». لكن ويفل كان لا يزال يصر على حل ديبلوماسي مدعومٍ «بعرض قوة جوي». وأبرق باقتراح مماثل أيضاً السفير البريطاني لدى العراق السير كيناهان كورنويلس.

كان رد فعل أوكينلك قاسياً. وقد بعث برسالة إلى سكرتير نائب الملك في الثاني عشر من ذلك الشهر: «إن القبول بنصيحة السفير، وتأجيل الحل (العسكري) لتأمين سلامة البصرة، قد يؤدي إلى عدم رؤية البصرة بعد اليوم. إن زمن المحاولات الديبلوماسية قد مضى. وإني أعتقد بأن رشيد قد يستغل هذه الفرصة لكي يدعم مواقعه، أو لكي يطلب المساعدة الألمانية!».

وكان مقرراً للقافلة البريطانية التي تنقل القوات إلى البصرة أن تغادر كراتشي ذلك الجمعة، وقد رفض أوكينلك تأخير سفرها.

في 17 نيسان/إبريل وصلت الدفعة الأولى من القوات البريطانية إلى البصرة من دون أي معارضة. ويبدو أن البريطانيين خدعوا رشيد عالي بأن أبلغوه أن قواتهم إنما تنوي إكمال مسيرتها إلى فلسطين، وهو أمر كان مسموحاً لهم بموجب المعاهدة الموقعة بين البلدين. وكان بين الذين أعجبوا «بعزم» أوكينلك، تشرشل بالذات، فقرر أن يدفع به إلى القتال، وبعث برسالة فورية إلى الجنرال ديل، يقترح فيها تعيينه نائباً لويفل. غير أن الوزير تردد، مبدياً الأسباب الآتية:

«أولاً: لأن أعمال أوكينلك في الهند ذات قيمة عظيمة بالنسبة إلى المجهود الحربي الذي تبذله الإمبراطورية. وثانياً: أن منصب أوكينلك في الهند رفيع جداً، ولن يفهم أحد معنى تعيينه في منصب الرجل الثاني، ثالثاً: إنني أبلغت ويفل بأنه إذا حدث له شيء ما فإنني خلفٌ له. فإذا أرسلنا أوكينلك إلى مصر اليوم فإن ويفل سوف يعتقد على الأرجح أننا ننوي إزاحته. رابعاً: الحقيقة إن القائد لا يستطيع أن يشارك أحداً في مسؤوليته، لأنه لن تلبث أن تعقب ذلك التسويات، وتغيب الأفكار والخطط الواضحة».

ثم يعقب ديل هذه الرسالة بقوله: «إذا كان لا بد لأوكينلك أن يذهب إلى مصر، فإنني أفضل أن أراه مكان ويفل على أن يكون نائباً له. وعلى أي حال لا بد لي من

القول: إن أوكينلك جنرال جيد، ذو شخصية قوية، لكنه ليس سوبرمان. إن ويفل يتمتع بعقل أفضل منه وهو أكثر علماً منه في تسيير العمليات العسكرية في الظروف الحديثة... وباختصار فإني لا أوصي بأن يصبح نائباً لويفل، بل أن يخلفه إذا فقدتم الثقة بويفل، أو حدث له أمر ما».

وسوف يسرّ أوكينلك لأصدقائه بعد الحرب، بأنه لو سمح له تشرشل بأن يذهب إلى جانب ويفل، لكانت أمور كثيرة قد تغيرت بالنسبة إلى الاثنين!

أسرع ويفل إلى أثينا في 21 نيسان/إبريل، في محاولة يائسة لتفقد الجبهة اليونانية المنهارة، وقد أبرق السفير البريطاني إلى لندن يصف اللقاء بين ويفل وعاهل اليونان: «لقد أقر صاحب الجلالة بأن عامل الوقت يجعل من المستحيل تنظيم أي قوة يونانية لدعم الجناح الأيسر من القوة البريطانية... وعندها قال ويفل إن من واجبه في هذه الحال أن يسحب ما استطاع من القوات البريطانية، فوافق الملك تماماً،. وبعد برهة كانت الحكومة في لندن توافق بدورها على قرار الانسحاب. وانتهت المقاومة اليونانية في 24 نيسان /إبريل. وبدأ إجلاء القوات البريطانية تلك الليلة، واستمر نحو أسبوع، وترك ويفل خلفه نحو 12 ألف جندي بين قتيل ومفقود، بالإضافة إلى الكثير من العتاد، وتوجه نحو 15 ألف جندي من القوة المنسحبة إلى إفريقية الشمالية، حيث كان رومل قد أجبر القوات البريطانية على التراجع من «برقة» إلى مصر، باستثناء تلك المتمركزة في طبرق. أما سائر القوات التي أنقذت من اليونان فقد نقلت إلى كريت، الهدف الآتي لدول المحور.

بالإضافة إلى الأنباء المقلقة في المتوسط تلقت لندن أنباءً عن «انهيار مفاجىء» في العراق. إذ بعد 24 ساعة من بدء الجلاء عن اليونان وقّع رشيد عالي الكيلاني معاهدة مع ممثلي دول المحور. وهكذا حرك أوكينلك قوات جديدة باتجاه العراق، كان مقرراً أن تصل إلى البصرة في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل، غير أن رشيد عالي الكيلاني الذي أبلغ قبل يوم بوصول هذه القوات رفض أن يمنحها الإذن بالنزول، وأرسل قواته جنوباً لمقاومتها، وفي ذلك النهار أيضاً أبلغت لندن أن قوات رومل تجس النبض على حدود مصر، وأن الهجوم على كريت أصبح وشيكاً.

وطار صواب تشرشل. وأبلغ لجنة الحرب الوزارية أنه لا يعتقد أن بإمكان بريطانية الصمود طويلاً في كريت. وانتقد الدور العسكري في الشرق الأوسط وصاح: يجب أن ندافع عن كل بوصة في مصر!

في أول أيار/مايو تسلم أوكينلك مسؤولية «الشؤون العسكرية في العراق»، وفي اليوم التالي بدأت القوات الموجودة في الحبانية بالرد على قوات رشيد عالي. وكان ويفل أكثر الناس خوفاً. وقد أبرق، يائساً، في 3 أيار/مايو إلى لندن: «لقد حذرتكم مراراً أنه من المستحيل أن نبعث بتعزيزات إلى العراق من فلسطين في الظروف الراهنة، ونصحتكم مراراً بعدم التورط في العراق... إن قواتي متعبة في كل مكان ... إنني أستطيع فقط أن أنصحكم بالتفاوض».

لكن لندن ردت على الفور، أولاً: أنها ترفض الوساطة التركية في الموضوع، ثانياً: يجب تدعيم دفاعات الحبانية بانتظار التعزيزات! صباح اليوم الثاني كان ويفل يرد بالمزيد من الغضب: «أنكم لا تعيرون الحقائق أي اهتمام. ويجب أن تواجهوا الواقع».

كان ذلك في الخامس من أيار/مايو، وقد قال ويفل في برقيته إنه غير قادر إلا على تأمين قوة صغيرة وأن هذه القوة لن تصل إلى الحبانية إلا في 12 أيار/مايو على أقرب تقدير، «وإني لا أدري ما إذا كانت القوة المذكورة تستطيع إنقاذ الحبانية، أو ما إذا كانت القاعدة نفسها قادرة على الصمود حتى ذلك الوقت». وحث مرة أخرى على التفاوض: «إنني أعدّ أن إطالة القتال في العراق سوف تعرض دفاعات فلسطين ومصر للخطر».

وكان موقف أوكينلك معاكساً تماماً: التورط في العراق لن يهدد موقع مصر، بل إن التخلي عن المواقع البريطانية في العراق سوف يزعزع القبضة البريطانية على الشرق الأوسط كله. إن ضعف بريطانية سوف ينكشف، وسوف تعمد «عناصر أخرى» في المنطقة إلى مساعدة دول المحور.

وصلت برقية ويفل القلقة إلى «لجنة الدفاع» ظهر السادس من ذلك الشهر. ويبدو أنه خّيل إلى وزير الحربية أن ويفل كان مبالغاً في التشاؤم. وكان الوزير مقتنعاً بأنه

ليس من المخاطرة إرسال قوة نجدة من البصرة إلى الحبانية. وقد كتب تشرشل عن تلك الجلسة بعد الحرب: إن «ويفل استمر في إطاعة الأوامر بعد الاعتراض، أما أوكينلك فاستمر في عرض التعزيزات». وهكذا أبرقت لندن إلى ويفل تعتذر عن قبول اقتراحه، وإلى أوكينلك تشكر وتشجع.

هنا أيضاً قام خلاف بين القيادات البريطانية الثلاث: في لندن والقاهرة ودلهي: هل تظل القوة الموجودة في العراق تابعة لقيادة الشرق الأوسط، أم تلحق بالهند من جديد؟ أوكينلك مع الهند. أما ويفل فقال: «إن بعضنا ينظر إلى الوضع الآسيوي الإستراتيجي من زاوية ضيقة، ويرى أن شمال إفريقية والمشرق قلعة واحدة، وأن الهند قلعة أخرى، والملايو ـ بورما ـ هونغ كونغ قلعة ثالثة. إنني أفضل أن ننظر إلى هذا الوضع على أنه جبهة واحدة مستمرة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام».

في العاشر من أيار/مايو بحث تشرشل المسألة مع عدد من رفاقه: إيدن، واتلي، بيفربروك، وديفيد مارغسون، الذي أصبح في هذا الوقت وزيراً للحربية. وروى إيدن فيما بعد أن «تشرشل اقترح استبدال أوكينلك بويفل وهذا بذاك». ووافق بروك، بينما تردد الثلاثة الآخرون. «لم يكن لدي شك في أن ويفل كان أفضل، لكنني لا أعرف كيف كان يتحمل تلك الأعباء».

بدأت القوات البريطانية بالوصول إلى الإسكندرية في 12 أيار/مايو، وكان معها نحو 300 دبابة لدعم قوات ويفل في الصحراء. وكانت الأوضاع تتدهور في أمكنة أخرى، ومنذ 28 نيسان /إبريل كانت لجنة الحرب قد أبلغت ويفل أن مهمة أخرى قد توكل إليه: الزحف إلى سورية التي تسيطر عليها قوات فيشي بقيادة الجنرال دنتز. والآن في منتصف أيار/مايو أغارت الطائرات الألمانية، مستخدمة مطارات سورية، على القوة البريطانية المتجهة من البصرة إلى الحبانية. وأعلن الجنرال دنتز أنه سوف يطيع أوامر حكومة فيشي بالسماح للألمان باحتلال سورية. وطلبت لندن إلى ويفل أن يهيئ بأي شكل قوة طارئة لمساعدة «الفرنسيين الأحرار»، لكن الرجل اعترض مجدداً.

كان تشرشل قد اقتنع نهائياً بأن ويفل يجب أن يقال. وأصدر الأمر الشهير بنقله إلى الهند وتعيين أوكينلك. لكن عملية الاستلام والتسليم تأخرت قليلاً بسبب مستجدات الساعة، إذ فجر 20 أيار/مايو شن الألمان حملتهم المدمرة ضد كريت. وقد قتل في الجزيرة من الألمان أكثر مما سقط خلال 20 شهراً من الحرب. لكن التضحية أعطت ثمارها. وسوف تستمر أعباء ويفل في المنطقة بعض الوقت. وقد بدأت الحملة البريطانية ـ المشتركة في سورية في 8 حزيران/يونيو، بموجب خطة وضعها ويفل سميت «المصِّدر» (بالتشديد)، لكن الرجل كان مقتنعاً بأن قواته غير كافية، وأن القوات الفرنسية الحرة غير كافية للقيام بالحملة. وكان ذلك صحيحاً. إذ إن القوة كانت تأمل في الوصول إلى دمشق في يوم واحد، لكنها لم تصل دمشق إلا في 22 حزيران/يونيو ولم يوقع دنتز الهدنة إلا في 11 تموز/يوليو.

قبل ذلك، أي في 15 حزيران/يونيو من ذلك الصيف الحار جداً، كان ويفل قد شن حملته المتوقعة في الصحراء. وكان تشرشل يعلق آمالاً كثيرة على ذلك الهجوم الذي سمي سراً «فأس المعركة». وفي الصحراء كان الثعلب الألماني قد قرأ سلفاً الخطوة البريطانية المقبلة في الرمال، فهيأ قواته سلفاً. وهكذا، في الساعات الأولى من ذلك النهار، صد الإيطاليون والألمان الهجوم البريطاني. وقد استخدم رومل في المعركة أسلوبه التقليدي: دع العدو ينهك نفسه أولاً، ثم انقض عليه. ومع ظهر اليوم التالي كان الإنكليز قد فقدوا الكثير من الدبابات. وانقض رومل على فريسته: «لقد خططت أن أجمع فرقتي المدرعات على شكل قوس، ثم أوجه إلى العدو ضربة قاضية في النقطة الحساسة».

وتقدمت الفرقتان الألمانيتان طوال الليل، ومع الفجر كانتا تطبقان على الإنكليز، وتقطعان عليهم خطوط الاتصال. وانتشرت الفوضى في صفوف البريطانيين، فيما طار ويفل إلى الخطوط الأمامية على الجبهة. لكن في 17 حزيران /يونيو كان الأمر بالانسحاب قد صدر.

في لندن كان تشرشل ينتظر النتائج على أعصابه. لكنه كان متوتراً لدرجة لم يعد معها قادراً على البقاء في 10 داوننغ ستريت، فحمل نفسه ومضى إلى منزله الريفي

في «تشيكرز». وهناك تلقى رسالة ويفل: «آسف أن أبلغك بفشل فأس المعركة». وقام تشرشل إلى الوادي يهيم على وجهه ساعات طويلة، كما كتب فيما بعد.

وبعد ذلك بثلاثة أيام كان يكتب إلى ويفل: «آسف. لقد أعجبت كثيراً بسجلك الحافل، ولكن...»!

كذلك بعث برسالة أخرى إلى أوكينلك الذي غادر «سيملا» بالطائرة في 27 حزيران/ يونيو ووصل إلى القاهرة في 30 منه: إنه «شرف عظيم» أن يكون المرء «قائداً أعلى في الشرق الأوسط». هكذا قالت غرفة الحرب للجنرال الجديد، الذي ظل تشرشل إلى ما بعد الحرب يشعر بالامتنان له، لأنه أدى دوراً أساساً في انهيار ثورة رشيد عالي في العراق!! لقد أيد الإنكليز الثورة العربية في الحرب الأولى لأنها كانت ضد الأتراك، أما أن تصبح هذه الثورة ضدهم أيضاً فهذه مسألة أخرى.

هبطت طائرة أوكينلك في مطار «هليوبوليس»، فلم يجد أحداً في استقباله. كانت عملية الانتقال لا تزال محاطة بالسرية الشديدة. غير أن ويفل كان في انتظاره في منزله المطل على نادي الجزيرة الساحر، وفي اليوم الآتي رافقه إلى مقر القيادة، حيث قدمه إلى الضباط الذين كانوا يجهلون كل شيء عن عملية الاستلام والتسليم الوشيكة. وفي 7 تموز/يوليو غادر ويفل القاهرة إلى الهند من طريق فلسطين، لينصرف أوكينلك إلى مهمات الجبهة الأكثر أهمية وتعقيداً في الحرب: «لقد امتدت السيطرة البريطانية الآن من كينيا إلى الحدود التركية. ومن إيران إلى الحدود المصرية ـ الليبية». وعلى الرغم من فشل هجوم «فأس المعركة»، فإن الانتصارات السابقة التي حققها ويفل في شمال إفريقية سوف تؤثر في مدى فاعلية الإيطاليين طوال الحرب.

كان ظل رومل الطويل يخيم على حدود مصر. لكن ثعلب الصحراء بدأ يتعب. وقوته أخذت تنزف. إن الفوهرر بحاجة إلى تعزيزات على الجبهة الروسية، وها هم الجنود الألمان ينزحون من حرّ الصحراء إلى برودة الجبهة الروسية العميقة الثلوج. وفي المقابل كانت التعزيزات البريطانية تصل تباعاً، بعدما فقد الإنكليز نحو 30 ألف رجل في اليونان وكريت.

في أول تموز/يوليو تذوّق أوكينلك الملعقة الأولى من مرّ التعاطي مع تشرشل: «بعدما وضعت أمامك الحقائق كلها، عليك أن تقرر الآن ما إذا كنت تنوي أن تجدد الحملة في الصحراء الغربية، ومتى. ويجب أن تعطي اهتماماً خاصاً لطبرق، وللتعزيزات التي يقوم بها العدو في ليبية، وللاستفزازات في سورية». وبعد ذلك بيومين ألحق تشرشل برقيته برسالة أخرى: «عندما تستقر الأمور في سورية، نأمل بأن تدرس إمكان تعيين (الجنرال) ولسون قائداً لجبهة الصحراء الغربية، لكن بالطبع القرار في النهاية قرارك».

ما إن عرض أوكينلك وجهة نظره على رئيس وزرائه، حتى دب الخلاف بين الاثنين. فهو يرى أنّه يجب عدم القيام بأي حملة قبل تأمين «القاعدة». وتأمين «القاعدة» كان يعني «استكمال احتلال سورية وتدعيم مواقعنا هناك» بالإضافة إلى قبرص. وكان أوكينلك يعتقد أن أي تهديد لأي فجوة في الجبهة، هو تهديد للجبهة كلها. أما الهدف النهائي «أي تدمير العدو في شمال إفريقية» فهو غير ممكن في «حملة واحدة، وإنما في سلسلة هجمات مركزة». ثم ماذا عن العتاد سأل أوكينلك رئيسه، «إن مثل هذه الحملة في الصحراء ليست مناسبة للمشاة، بل علينا دعم الجيش بسلاح جوي قوي».

وظلت هذه شعارات أوكينلك طوال مدة بقائه في المنطقة: الحاجة إلى قوة مدرعة فاعلة، إلى تفوق جوّي، وربط حسابات الجبهة الشمالية بالصحراء! وسوف يزيد من مخاوف تشرشل عندما يتناول وضع طبرق: «لست واثقاً من أنه في الإمكان المحافظة على طبرق بعد أيلول/سبتمبر. إننا نفعل كل ما نستطيع، لكن غارات العدو الجوي ضد السفن والبواخر في عرض البحر بدأت تفعل فعلها. وفوق ذلك إذا استطاع العدو تأمين «سيدي براني» ـ وهو قادر على ذلك في أي وقت ـ فإنه لن يعود من الممكن حماية السفن بالمستوى الحالي». وتحدث أوكينلك أيضاً عن مخاطر قيام الألمان بحملة على الجزء الشمالي من الجبهة في سورية أو العراق، الأمر الذي سيعقد الأمور تجاه الحملة في الصحراء الغربية!. ومن الهند انضم ويفل ـ الذي كان في السابق يقول «بالتفاوض»، والحل السياسي في العراق ـ إلى أوكينلك : «يجب إبعاد الألمان من العراق الآن، أكرر: الآن، من أجل سلامة الهند».

بحث الوزراء الذين يشكلون «لجنة الحرب» آراء أوكينلك مساء تموز/يوليو، ولم يكن بينهم من يؤيده. بل إن ألبرت ألكسندر، لورد الأميرالية الأول قال: «يجب أن نوجه ضربتنا القاضية في برقة خلال أربعة أسابيع على الأكثر. لا نستطيع أن نؤجل الحملة حتى تصبح قواتنا كاملة التدريب والعتاد». وقد وافق على ذلك الزعيم العمالي إتلي الذي تحدث عن ضرورة «إعادة احتلال برقة، فيما الألمان منشغلون على الجبهة الروسية».

وأمسك تشرشل بذريعة من ذرائع أوكينلك نفسه: «إنك تقول إنه قد لا يكون في الإمكان المحافظة على طبرق بعد أيلول /سبتمبر. ولذلك نعتقد أن أي محاولة لاستعادة برقة لا يمكن أن تؤجل بعد ذلك الشهر... فهل باستطاعتك القيام بالهجوم إذا أرسلنا إليك 150 دبابة إضافية على الفور». وفي اليوم نفسه ألحق تشرشل الرسالة ببرقية أخرى: إذا لم نستغل انشغال الألمان على الجبهة الروسية الآن، فإن الفرصة قد لا تكرر!

تدارس أوكينلك الوضع مع ضباطه: الجميع يقرون أن الحملة غير ممكنة الآن. متفقون، خصوصاً في العتاد. ومن أجل إعادة احتلال برقة لا بد من فرقتين مدرعتين على الأقل، لكن مثل هاتين الفرقتين لا يمكن إعدادهما قبل أوائل العام 1942 على أقرب تقدير.

تكاثرت الرسائل بين تشرشل وقائده في الشرق الأوسط. وسوف يكتب رئيس الوزراء البريطاني في مذكراته أنه شعر بأن ضباط ويفل قد أثروا في خلفه بالتعاطي مع لندن، واختصاراً للوقت والمزيد من العناد، طلب تشرشل إلى جنراله أن يأتي إلى لندن للبحث في الأمر.

كان أوكينلك يكن الاحترام لرئيسه، لكنه يعتقد أيضاً أنه يبالغ في تدخله في التفاصيل «ليته لم يكن جندياً في يوم من الأيام. لقد كان ذا عقل عظيم، لكنه كان أيضاً مهووساً بالانتصار». وفي 31 تموز/يوليو حاول أوكينلك أن يشرح لحكومة الحرب المشكلات التي تواجهه. وقد أصر أمام أعضائها على أنه حتى الحملة من أجل تخفيف

الضغط على طبرق، لن تكون ممكنة قبل شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وأن الهجوم الكامل يمكن أن يتم قبيل ربيع العام المقبل، وقال إن الوضع في ليبية «مجمد» حالياً، لا قواته قادرة على التقدم، ولا الألمان ينوون القيام بهجوم مبكر.

لم يعلق تشرشل بشيء، تاركاً الكلام حتى اليوم المقبل، الذي وصفه أوكينلك في رسالة إلى زوجته بأنه كان يوماً «رهيباً»، قال تشرشل لقائده:

«إن الألمان لاهون كلياً بالجبهة الروسية، وهم يجدون صعوبة شديدة في تموين مواقعهم في برقة، لدرجة أنهم قد ينسحبون من هناك، لكنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا أرغموا على قتال شديد يستنفد قواهم... ولقد بذلنا جهوداً كبيرة من أجل إرسال قوات إلى الشرق الأوسط، ومع ذلك ها نحن نبلّغ أنه ليس بالإمكان فعل أي شيء قبل أول تشرين الثاني/نوفمبر. إن هذا سوف يترك انطباعاً سيئاً عنا، كوننا في هذه المرحلة الحيوية، فيما يتحمل الروس لوعة الهجوم، وفيما الظروف مواتية جداً، لا نقوم بأي عمل».

رد أوكينلك من جديد: «ضرورة الهجوم واضحة جداً، لكن الوسائل غير سهلة». وقال للوزراء إن الفريقين يملكان عدداً متساوياً من الدبابات، «في حين أن التجربة أظهرت أنه لكي نربح المعركة لا بد من تفوق بنسبة دبابتين إلى دبابة واحدة».

تحدث أنطوني إيدن - إنه وزير الخارجية - ودوره هو أن يعرض المضاعفات السياسية: «إذا صد الروس الألمان، فإنهم سوف يكونون في موقف يمكنهم من القول إنهم ربحوا الحرب لنا... أما إذا فشل الروس فإننا لن نفقد فقط الفرصة بالهجوم، بل سوف نتهم بأننا لم نبذل أي مجهود لإنقاذهم».

نحو الواحدة والنصف اعتذر أوكينلك من السادة في 10 داوننغ ستريت. إنه على موعد لتناول الغداء مع الملك جورج، على بعد أميال قليلة في قصر باكنغهام. كان الملك منشرحاً، والغداء بسيطاً: عبارة عن حساء ودجاج وشراب التفاح! في الثالثة عاد إلى 10 دواننغ ستريت، ليصغي إلى تشرشل أكثر إصراراً وعناداً. ومعه، من المؤيدين، كليمنت إتلي: «معنا شهران فقط. الانتظار حتى تشرين الثاني/نوفمبر يعني أن الألمان سوف يستردون أنفاسهم، وأن فرصتنا سوف تضيع».

رد أوكينلك بقسوة : «الحملة الأخيرة أخفقت لأنها شنت قبل أن يكون الجيش مستعداً، وإذا تكرر ذلك فإننا لن نعرض القوة المدرعة فقط للخطر بل مصر كلها. لن يقف شيء أمام مسيرة العدو إلى الدلتا».

تدخل إتلي: لقد أخفقت الحملة الأخيرة لأننا لم نرمِ بكل شيء في المعركة. وعلى أي حال، كيف يمكن أن ننقذ مصر إذا انتظرنا حتى نعطي الألمان فرصة لتدعيم قواهم؟

غير أن أوكينلك ظل على عناده. إذا توافرت الفرصة للقيام بمثل هذا الهجوم سوف نبادر إلى ذلك على الفور. أما الآن، فلا. ازداد تشرشل عناداً بدوره: «إن الحروب لا تخاض على أساس الانتظار إلى أن يصبح كل شيء جاهزاً. وإنه لأمر مخيف أن نمضي أربعة أشهر ونصف الشهر من دون أن نفعل شيئاً».

استمر الاجتماع إلى ما لا نهاية! هكذا كتب أوكينلك إلى زوجته. غير أن تشرشل وعد في النهاية بأنه سوف يضع استنتاجاته على ورقة خلال يومين. والواقع أن تشرشل اعترف بالهزيمة: «لقد هّز أوكينلك جميع وزرائي بالتفاصيل التي قدمها. أنا شخصياً لم أقتنع. لكن أوكينلك ظل بالنسبة إليّ الرجل الأفضل، ولذا أذعنت وقبلت تشرين الثاني/نوفمبر موعداً».

كعادته حين ينهزم، أصبح تشرشل ودياً ومتفهماً. وهكذا دُعي أوكينلك لتمضية عطلة الأسبوع في «التشيكرز». وانضم إلى الاثنين أنطوني إيدن، فذهب تشرشل إلى النوم. بحث الاثنان في أمر الجنرالات الآخرين. وأبلغه أوكينلك أن تشرشل مصرٌّ على تعيين الجنرال ميتلاند ولسون قائداً في الصحراء الغربية، «لكن الرجل بطيء» بالنسبة إلى حملة من هذا النوع. وفي وقت لاحق من ذلك المساء اجتمعت اللجنة الحربية مرة أخرى.

كان ذلك في 2 آب/أغسطس. وكان الموضوع تلك الليلة: تركية! لقد بحث البريطانيون كيف يمكن مساعدة تركية ـ التي لا تزال على الحياد ـ في وجه أي غزو ألماني محتمل! لم تتغير الأشياء. في الحرب الأولى كان أوكينلك ـ النقيب في الجيش آنذاك ـ يحارب الأتراك، وكان الألمان إلى جانبهم.

عاد أوكينلك إلى القاهرة في العاشر من ذلك الشهر، من طريق جبل طارق ومالطة، وكانت مثل هذه الرحلة الجوية في تلك الأيام تستغرق يومين. وعمد فوراً إلى تعيين الجنرال آلان كانينغهام قائداً للجبهة الغربية، وليس ميتلاند ولسون الملقب «جامبو» لسمنته. وأبرق إليه تشرشل يهنئه، لكنه في الواقع كان ضد التعيين. وسوف يقول مونتغمري عن أوكينلك بعد ذلك: «إنه كان سيئاً في اختيار الرجل». لكن الحقيقة أن بريطانية كانت تعاني نقصاً في قادة الميدان آنذاك، والرجل الذي كان يريده أوكينلك، آبي أوكونور، كان قد أصبح في الأسر الألماني الآن.

كان كانينغهام في الرابعة والخمسين من العمر، أما ولسون فكان في الستين. وكان الأخير قد قاد «جيش النيل»، وقام بالحملة الأولى على «برقة» تحت إمرة ويفل، كما تولى قيادة المعارك في سورية.

في هذه الأثناء كان رومل يعيد تنظيم قواته بعد نجاحه في «فأس المعركة». وقد مكنته التعزيزات التي وصلته خلال الصيف من تدعيم كتائبه. وكان رومل قد أقنع هتلر خلال آب/أغسطس، بأن القوات الألمانية والإيطالية في إفريقية يجب أن تتوحد تحت إمرته. وظلت طبرق هاجس رومل الأول، لكنه وزع أيضاً بعض قوات المحور بين «حلفايا» و«سيدي عمر» لصد أي هجوم بريطاني من مصر. ولم يكن أوكينلك يخدع نفسه تجاه منافسه «إنه عدو سريع الحركة، وخطر جداً ، ومتفائل. ويجب أن تظل على حذر منه طوال الوقت».

أسبوع بعد أسبوع، تدفق الرجال والعتاد للفريقين في الصحراء. وها هم ألوف الرجال، من جنسيات متعددة، يتعرفون أول مرة إلى حر الصحراء ومسافاتها اللامتناهية. وعلى هذه الرمال «الممتدة حتى الأفق» سوف يتقاتلون قريباً: «مسافات خلف مسافات من الرتابة الفسيحة، وفوقها مسافات من السماء الفسيحة: شمس حارقة، وأرض تعكس حرها كأنها مرآتها».

يطرأ تحول جديد. إن أوكينلك، بعكس ما كان موقفه في لندن، أصبح مقتنعاً الآن أن في إمكانه تقديم موعد الهجوم. وها هو يكتب إلى تشرشل في 21 آب/أغسطس، أنه

بدلاً من «الهجوم المحدود» في الخريف يمكن القيام بالهجوم الكبير الذي تعد لندن نفسها به. ومع حلول أيلول/سبتمبر كان يصدر إلى كانينغهام أمراً يقول: إن الهدف من حملة الخريف هو «إخراج العدو من شمال إفريقية». وحدد ذلك في مرحلتين، الأولى: احتلال بنغازي وجوارها، والثانية احتلال طرابلس وجوارها، أو المنطقة التي كان الأجانب يسمونها «تريبوليتانية».

وفي لندن كان صبر تشرشل ينفد من جديد، ويتذمر علناً من أن هناك «600 ألف فم يجب إطعامه في مصر». لكن مع منتصف أيلول/سبتمبر كانت المناوشات الحقيقة قد بدأت فعلاً بين أوكينلك ورومل. وأرسل الثعلب الألماني فرقة من المدرّعات باتجاه «سيدي براني» لظنه أنها مخزن الوقود البريطاني.

وعندما لم يجد شيئاً هناك استمر في تقدمه، فيما تراجع الإنكليز في دهاء. وتوقف رومل في 16 أيلول/سبتمبر عن المضي في تلك المعركة التي سميت «حلم ليلة صيف»، مقتنعاً هذه المرة بأن تقديراته بضعف البريطانيين قد صحت.

وهكذا أدار رومل ظهره لعدوه، بينما راح الإنكليز يبنون هذه المرة فعلاً مخازن وقود في «سيدي براني». هو كان يريد ضرب حصار حول طبرق. غير أن متاعب الإنكليز كانت كثيرة أيضاً، وبينها كما يروي وزير زائر: كثرة الضباط «من الدرجة الثانية». ومن ثم فإنه «ما لم يتبدل هؤلاء بدماء جديدة، فإن الحالة سوف تزداد انهياراً».

وعلى أي حال وضع الجنرال كانينغهام خطة محددة للهجوم، إنه الآن قائد «الجيش الثامن»، مع أن تشرشل كان يريد أن يطلق على القوة اسم «جيش النيل». واعترض أوكينلك على التسمية: «أين نحن من النيل؟ إنها رومانطيقية ساذجة. وعلى أي حال فإن الجنود لا يهمهم بشيء أي اسم تطلقه عليهم». كانت خطة كانينغهام تقضي بشن الهجوم عبر الجزء المهجور تقريباً من الحدود المصرية ـ الليبية قرب «سيدي عمر»، على أن تتجه القوة البريطانية الضاربة في الشمال الغربي نحو طبرق. وكان الهدف من ذلك استدراج رومل وفرقتيه المدرعتين «بعيداً عن حصنه». وعندما يتم ذلك تندفع الحامية البريطانية إلى القتال بدورها، ثم تقوم فرقة أخرى من الجيش الثامن بتطويق المواقع الألمانية على الحدود، قبل أن تندفع نحو «البردية» وطبرق.

في غضون ذلك تابع أوكينلك مسؤوليات أخرى. وفي 3 تشرين الأول/أكتوبر بدأ جولة تفقدية على قواته في سورية وفلسطين، استمرت حتى العاشر منه. وعلى عكس تشرشل ظل خائفاً من مخاطر محتملة في تلك «الجبهة الشرقية». وقد كان على حق، ففي الجانب الآخر كان رومل يحلم ـ إذا توافرت له التعزيزات ـ بدحر حملة بريطانية توقعها في أوائل الربيع، يندفع بعدها في نهايات الربيع إلى قناة السويس، ومن هناك إلى العراق، وخصوصاً البصرة.

لكن في حين كان أوكينلك يتطلع بطرف عينه إلى الشرق، كان نظر تشرشل مركزاً على غرب تلك الجبهة الطويلة! كانت للعجوز اللندني أحلام بعيدة المدى، أقلها إبعاد رومل من ليبية: «إذا أخذنا طرابلس، ولم تتحرك فرنسة، فإن حيازتنا لمالطة سوف تمكننا من الزحف على صقلية، وبذلك نفتح «الجبهة الثانية» الوحيدة الممكنة في أوروبة.

وشاركه وزراء آخرون هذا الحلم الذي بحثته لجنة الدفاع في 15 تشرين الأول/أكتوبر في جلسة خاصة. وبحث الوزراء أيضاً في وضع روسية، وعدم مساعدة بريطانية للحليف المتألم. ولذا قال إتلي: «إن السياسة الحكيمة هي أن نكون مستعدين لاستغلال نجاحنا في الصحراء». أما إيدن فكان يعتقد أن «اللحظة المناسبة للزحف على صقلية قد تكون خلال الهجوم على طرابلس». وأصر اللورد بيفربروك على أنه يجب القيام بأي عمل في الحرب لمساعدة الروس.

انهمك أوكينلك في تعديل الدبابات الواصلة الحديثة، بحيث تستطيع القتال في الصحراء. كان هذا يعني تأخير موعد الهجوم إلى 15 تشرين الثاني/نوفمبر. وطار صواب تشرشل من جديد، ومن جديد أيضاً تطايرت البرقيات بين القاهرة ولندن، وأصر العجوز البريطاني من عاصمته على أن قواته تملك الآن 616 دبابة، في حين يملك الألمان 186 «أي أربع دبابات مقابل واحدة. وهذا كثير».

غير أن تشرشل عاد فأذعن لقرار جنراله المتأني: «ليس لدينا خيار سوى أن نقبل اقتراحك الجديد، لذلك فإنني لن أضيع المزيد من الكلام في الحديث عنه».

لكن أوكينلك، بعد بروز صعوبات جديدة في تدريب بعض الفرق، سوف يؤجل الموعد مرة أخيرة حتى 18 من ذلك الشهر. في المقابل كان رومل يركز اهتمامه على طبرق لطرد الحامية البريطانية منها، ويهيئ للقيام بهجوم عليها بين 15 و 18 تشرين الثاني/نوفمبر. وكتب أوكينلك بعد الحرب إنه درس آنذاك إمكانية «تأجيل حملتنا، إلى أن يكون رومل قد بدأ هجومه، وعند ذلك نهاجمه من الخلف لكننا لم نكن نعرف موعده».

غادر ثعلب الصحراء إفريقية الشمالية لبضعة أيام في منتصف الشهر، فيما كان الجيش البريطاني الثامن يتخذ مواقعه للهجوم. وفي 15 منه وجه تشرشل رسالة إلى رجال أوكينلك: «إن جيش الصحراء قد يضيف صفحة جديدة إلى التاريخ الذي كتب في بلنهايم وواترلو. إن أنظار جميع الأمم تتطلع إليكم».

حل فجر الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1941. وعنه كتب أحد المشاركين في المعركة: «لقد بدأت! هذا الصباح استيقظنا في الرابعة تحت جنح الظلام، وكذلك استيقظت على ما يبدو جميع الوحدات في فرقتنا المدرعة، وكأننا في سباق عظيم... وعلى مدّ النظر في تلك الصحراء كانت هناك عربات من كل الأنواع ـ دبابات وسيارات مصفحة ومدافع وطنابر وشاحنات ولوريات ـ كلها تتجه غرباً نحو ليبية».

طوال ذلك النهار سارت القوات البريطانية، من دون أن ترى أمامها أي قوات ألمانية سوى وحدات الاستكشاف. ومع المساء كان أحد الفيالق قد وصل إلى موقعه في «جبر صالح» جنوب غرب طبرق، حيث أمل في استدراج الألمان. لكن الألمان لم يتحركوا، وقد خيل إلى رومل، الذي عاد إلى الصحراء قبل يوم واحد، أن القوات البريطانية لم تكن سوى قوة استكشاف ضخمة، وهكذا استمر في الإعداد للهجوم على طبرق. والهدوء الألماني أدى بدوره، عن غير قصد، إلى إرباك الإنكليز الذين حاروا في تفسيره، وهكذا غيّر البريطانيون خططهم بأن وزعوا جنودهم... ومن ثم قواهم، وقد كتب رئيس أركان رومل الجنرال فريتزبايرلين فيما بعد: «إنه فقط بعد ظهر الثامن عشر تيقنت فرقة البانزر من أن العدو قد شن حملة رئيسة».

وبدأت وحدات دبابات «البانزر» بالتجمع في 19 تشرين الثاني/نوفمبر، باتجاه «جبر صالح». غير أن القوات البريطانية كانت قد قطعت شوطاً من التقدم نحو «سيدي رازق» وطبرق، وهو تقدم لم يكن مهماً بسبب تفرق القوات، والمسافات التي تفصل بينها.

تعالت ضراوة الاشتباك في كل اتجاه، واستطاعت فرقة بريطانية اقتحام إحدى النقاط الألمانية، إلا أن رومل صد المزيد من التقدم، فيما دارت الدبابات والمدرعات البريطانية حوله وحول نفسها أيضاً في مساحات الصحراء، وتوقف عدد كبير من الدبابات بسبب أعطال ميكانيكية أو لنفاد الوقود، وانقطعت خطوط الاتصال، وضاعت وحدات كثيرة، ثم وجدت، ثم ضاعت من جديد. «لم يكن ضباب الحرب بهذه الكثافة في أي معركة».

في هذه الحالة من الضياع والفوضى فقد الجنرال كانينغهام قبضته الأولى على المعركة، وفقد أعصابه أيضاً. وكان رومل يستخدم في الجانب الآخر حدة الهجوم وصلابة القتال، فاستعاد المبادرة لقوات المحور. أما أوكينلك الذي كان يزوّد بتقارير خاطئة من الجبهة، فكان يرسل هذه التقارير بدوره إلى لندن. وفي 22 تشرين الثاني/نوفمبر أبرق إلى لندن يقول: «إن إمكانات تحقيق هدفنا الفوري، أي تدمير القوات الألمانية المدرعة، تبدو جيدة». وفي برقية أخرى ذلك النهار: «إن الشجاعة والإقدام اللذين أظهرهما القادة والقوات كانا رائعين. وفي رأيي إن كانينغهام قد أنهى حتى الآن هذه المعركة الشديدة التعقيد بمهارة وجرأة».

بعد بزوغ فجر 23 تشرين الثاني/نوفمبر بقليل، كان رومل يهجم على المواقع البريطانية، فيحطم الكثير منها، ويوقع في صفوف الإنكليز 3.994 قتيلاً. وفقد البريطانيون أيضاً مئات الدبابات. أما الألمان ففقدوا نحو 60 دبابة فقط.

وبدا أن كانينغهام سيأمر بين لحظة وأخرى بتراجع جماعي إلى مصر. غير أن رئيس أركانه، الجنرال ألكسندر فالواي عارض مثل هذه الخطوة بشدة، وأبرق إلى القيادة في القاهرة بالأمر. وأبرق كانينغهام يائساً إلى أوكينلك يطلب منه الحضور فوراً.

حتى تلك اللحظة لم يكن أوكينلك قد تدخل في المعركة. وقد قال فيما بعد: «آخر ما كنت أريد هو أن أتدخل، إلا إذا ساءت الأمور». لكن ها هو يستقل الطائرة العسكرية التي تحلق به في العاصفة «على علو 100 متر فقط أحياناً». وما أن وصل حتى انتحى جانباً بكانينغهام، الذي أطلعه على الخسائر الفادحة في الدبابات. وسأله قائد الحملة: ماذا نفعل الآن؟

كان أوكينلك حاسماً: يجب على «الجيش أن يهجم. يجب إنزال خسائر موازنة بالعدو. الآن وقت الضغط عليه». فقد لاحظ أن الألمان أيضاً يعانون من التشتت: «إنهم يهاجمون هنا وهناك، وفي كل مكان، في ما بدا لي محاولة يائسة للإخلال بتوازننا وزرع الفوضى في صفوفنا. صحيح أن العدو كان قد استرد المبادرة التكتيكية، لكن المبادرة الإستراتيجية ظلت في أيدينا: نحن نهاجم، أما هو ففي موقع الدفاع»، وهكذا قرر أوكينلك تخطي الصعاب بدلاً من أن ينوء تحتها مثل جنراله. لم يفقد أعصابه أمام مشهد المدرعات والسيارات المحترقة التي تضيء ليل الصحراء. أما ثعلب الصحراء فقد عاد إلى قاعدته في «العدم» وهو شديد الفرح. لقد قرر رومل الآن أن يقوم بأجرأ خطوة في حياته العسكرية: سوف ينتقي أفضل وحداته ويقودها نحو مصر، ضارباً أولا الأجنحة الخلفية للجيش الثامن، مشتتاً الفيالق الأخرى! ولو نجح رومل في ذلك لاعتبرت تلك من أمكر الخطوات ذكاء في تاريخ الحرب، لكنه سوف يفشل بسبب أوكينلك.

في ذلك النهار بالذات كتب رومل إلى زوجته يقول: «يبدو أن المعركة قد تخطت أزمتها». أما أوكينلك فكان يبرق إلى لندن: «يبدو أن المعركة تتجه نحو ذروتها». الأول اعتقد أن ساعة النصر قد حانت، والثاني كان يعتقد أن اللحظة الحاسمة لم تحن بعد.

«إن السرعة حيوية جداً» هكذا قال رومل لجنرال نويل صباح اليوم الثاني، 14 تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد قليل كانت الدبابات الألمانية تتجه نحو مصر تتقدمها، سيارة رومل! ووصف أحد الضباط الإنكليز تلك الساعات بقوله: «كان رومل يتقدم وكأنه ثور فالتٌ في مخزن للأواني الزجاجية»: لقد بدا الآن أن مصر في متناوله.

على طاولة مفككة في الصحراء كان أوكينلك يكتب أوامره: 1- «استمروا في مهاجمة العدو بلا هوادة مستخدمين جميع إمكاناتكم حتى الدبابة الأخير. 2- هدفكم الفوري هو تدمير دبابات العدو. 3- هدفكم النهائي لا يزال احتلال برقة، ثم الاتجاه نحو طرابلس».

استمرت حملة الجيش الثامن على الرغم من ضربات رومل. وفي «سيدي رازق» أعاد الفريق المهزوم تجميع أفراده، وفي الشمال اندفعت الفرقة النيوزيلندية نحو طبرق.

تحرك رومل بلا راحة، وتعطلت سيارته قرب دورية بريطانية، لكنه نجا من الأسر. إلا أن أوكينلك ظل مطمئناً. وقال لأحد المراسلين الأميركيين: «إنه يقوم بمحاولة يائسة، لكنه لن يذهب بعيداً. إن ذلك الطابور من الدبابات غير قادر، بكل بساطة، على الحصول على مؤن».

من ناحية أخرى كان عليه أن يستبدل كانينغهام. لا مفر من ذلك. إنه يتلقى كلاماً طيباً من تشرشل وأنباء جيدة من الجبهة. لكن البدائل كانت قليلة. وفي النهاية اختار أحد رفاقه في القيادة، ريتشي، وهو قرار سوف يثير الانتقادات فيما بعد، وكتب إلى كانينغهام رسالتين، واحدة شخصية والثانية رسمية. وفي الأولى يقول له: «ليس هناك جدوى من أن أقول لك كم أكره هذا. لكن لا خيار أمامي. إنها قناعتي». وسوف يصبح كانينغهام، على الرغم من ذلك، المفوض السامي وقائد القوات البريطانية في فلسطين بين العامين 1945 و1948.

بدا القائد الجديد متفائلاً: «إن الوضع العام في برقة جيد بصورة عامة، والدلائل تشير إلى أن صعوبات العدو آخذة في التزايد». غير أن تشرشل كان يبرق إلى أوكينلك. لماذا لا يقود المعركة بنفسه؟ لكن الجنرال ردَّ بأن ذلك قد يترك تأثيراً سيئاً في الجنود. ولكل مسؤولياته في الميدان.

في غضون ذلك، في 28 تشرين الثاني/نوفمبر، كان ثعلب الصحراء قد عاد إلى «العدم» وأعاد قواته إلى منطقة «سيدي رازق» التي احتلها بعد يومين، واستعد من جديد لضرب طبرق.

وفي أول كانون الأول/ديسمبر عاد أوكينلك إلى الجبهة ليرى أن رومل قد خسر الكثير من الدبابات. ففرقة البانزر الحادية والعشرون لم يبق لديها سوى 21 دبابة، أما الفرقة الخامسة عشرة فبقي لها 15 دبابة، وبالمقابل حصل الإنكليز على 120 دبابة جديدة: لم يبق أمامنا سوى التراجع. هكذا قال أحد أركان رومل.

لكن رومل نفسه لم يوافق. وقد حاول القيام بهجوم مضاد في 2 كانون الأول/ديسمبر. وفي الرابع منه كان مشهد القتال بين سيدي رازق وطبرق مضحكاً ومأساوياً معاً: الدبابات والمدرعات تدور حول نفسها في الصحراء، المشاة غارقون في الرمال، يقاتلون، يغرقون، ثم يقدمون ثانية. وكتب الكابتن روبرت كريسبا، أحد المشاركين في تلك المعركة: «أستطيع القول بكل صدق: إن أحداً منا لم يكن يعرف أين نحن من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة. ولم نكن نعرف ماذا يحدث لقواتنا أو لقوات العدو. لقد انتقلت الحملة، في عنف شديد من أحد جوانب الصحراء إلى الجانب الآخر... كنا نطارد السراب ونشعر أن السراب يطاردنا أيضاً. لم ننم . لم نأكل. لم نستحم . والكلام الوحيد الذي كان يقال على اللاسلكي فقط».

بعد ثلاثة أيام بدأ رومل، الذي لم تصله أي مؤن، بعكس الإنكليز، يفكر في الانسحاب في ضوء خسائره البشرية والمادية. وعرف البريطانيون بأزمة ثعلب الصحراء، فراحوا يشبعون قواه ضرباً. وفي الثامن من ذلك الشهر كان المارشال الألماني ينسحب من أطراف طبرق بعد حصار دام 242 يوماً. أما أوكينلك فكان يعود إلى القاهرة، كلاهما سوف يستعد الآن لواحدة من أشهر المعارك في تاريخ الحروب: العلمين!